الغيبوبة

جلسة سرية مع المحتضرين

« شلالات وابينجرز »

فى نيويورك سخر أصدقاء «إميل» منه عندما أخبرهم بعزمه على الطيران إلى «بوجكيبسى».. فهو يجهل مكان هذه المنطقة التى تقع على أطراف المدينة – على حد قول «سام» صديقه وشريكه فى المسكن..

لذلك قرر «إميل» ترك المجال الجوى واستخدام القطار.. وعلى بعد ساعة من «مانهاتن» استقل الأوتوبيس لمدة عشر دقائق حتى بلغ «شلالات وابينجرز»..

هناك على قمة التل المغطى بالأشجار كان على موعد مع السيدة «ايكر» فى أحد الأديرة.. وأتاح له حضوره مبكراً رؤية جميع القادمين فلم يكن وحده على موعد معها فى ذلك اليوم.. وعندما أكد له سكرتير جمعية «شانتى نيلاية» أن هناك ثلاثة وتسعين شخصًا سيحضرون هذه الندوة يوم ٢١ يناير من عام ١٩٨٤ .. اضطر إميل إلى الاتصال بـ «ايكر» فى منزلها «بفرجينيا» ليستأذنها فى الحضور.. وكان حسن الحظ إذا سمحت له بحضور الندوة فهى عادة تسمح بإضافة شخص أو اثنين فقط.. وهكذا لم يضع مجهوده فى عبور المحيط الأطلنطى سدى..

إنهم يتوافدون تباعاً حتى اكتمل عددهم فى الثانية عشرة ظهراً.. جميعهم من الأمريكيين عدا ثلاثة هم: شاب ايطالى مصاب بالسرطان وطبيب من بوليفيا – وإميل الفرنسى الجنسية.. جمعت الندوة ألواناً مختلفة من البشر.. رجالاً ونساء منهم الهادئ والعدوانى، الملتحى والأجرد، المثقف والحرفى..

وكان أصغرهم سنًا لا يتجاوز الثامنة عشرة وأكبرهم امرأة فى السبعين.. تشغلهم جميعاً فكرة واحدة هى الاحتضار.. فمنهم آباء أو أبناء لأشخاص يواجهون الموت وثلثهم هم المحتضرون أنفسهم..

هذا هو الهدف الذى قطع من أجله «إميل» رحلته داخل أمريكا.. فهو يريد أن يقضى أسبوعًا متواصلاً من الليل والنهار بين أربعة جدران مع رجال ونساء مهددين بأبشع الأخطار: الموت..

استقبلت «ساندى» إحدى مساعدات «ايكر» الثلاثة إميل مرحبة ثم اصطحبته إلى القاعة التى ستعقد فيها الندوة.. هناك وجد ثلاثة وتسعين مقعداً من البلاستيك متراصة فى ثلاثة صفوف على هيئة نصف دائرة حول المقاعد الوثيرة المخصصة «لإيكر» ومساعديها.. وفى وسط القاعة وضعت مرتبة عليها وسادتان وبجوارها كمية ضخمة من المفكرات القديمة..

وبعد أن نقل القادمون أمتعتهم إلى الغرفة التى أرشدهم إليها أحد الرهبان بدءوا يتوافدون على البهو الرئيسى.. وحاول إميل فى فضول أن يستخدم حاسته السادسة لاكتشاف المحتضرين من بين أمثاله الذين حضروا معياً وراء مزيد من المعلومات حول ظاهرة الاقتراب من الموت.

إن جميعهم يظهرون نوعًا من الضعف البشرى.. تتشابه وجوههم وأجسادهم.. يماثلون تمامًا أىعينة عشوائية من البشر يمكن اختيارها من أحد شوارع بوسطن أو شيكاغو.. ويتعارف القادمون الذين جمعتهم نفس المحنة وتختلط ضحكاتهم.. ومع إشراقة الشمس مبددة السحب والغيوم يسود جو من المرح مما يدفع «إميل» للتساؤل عما إذا كانت قدماه قد قادته خطأً إلى مكان آخر لا يوجد به محتضرون.. هنا يحاول كل من الحاضرين جاهداً إخفاء هويته. ويرقب «إميل» القاعة ويتخيل أحد المحتضرين راقداً فوق المرتبة فى سبيله لسرد معاناته.. إن مجرد التفكير فى هذه الأمور يصيبه بالغثيان ولكنه يعود ليتساءل: «من يحتضر هنا؟» ثم يجيب نفسه ساخراً:

«إننا جميعًا نواجه الموت!» وأخيرا ينتشله صوت جرس موعد الغذاء من التأمل والتفكير.

فى قاعة الطعام جلس الناس حول مناضد تتسع لاثنى عشر فرداً ولاحظ الفرنسى أن الأمريكيين يتمتعون بشهيتهم المعتادة رغم سوء حالتهم النفسية. ووضعته الصدفة إلى جانب جاره فى الغرفة وهو شاب من «بروكلين» يدعى «فيل» ضخم الجسم، أحمر الوجه، غير حليق يتميز حديثه بالسخرية والفضول.. وعلى نفس المنضدة جلست سيدة شقراء فى الأربعين من عمرها، جميلة رغم الهالات السوداء التى تحيط بعينيها.. وأخذت تشكو من المناهج الدراسية المكتظة.. فابنتها التى التحقت هذا العام بكلية الهندسة المعمارية تجد صعوبة بالغة فى استيعاب هذا الكم الهائل من المعلومات.. وعندئذ صاح «فيل» ضاحكًا: «إننى مهندس وأنصحها بترك الكلية!»

وهنا لمحها «إميل».. إنها جالسة أمامه تفصلهما منضدتين.. إنها هى.. صغيرة الحجم ذات ذقن مميز.. تبدو أكبر قليلا من الصورة.. إنها «إيكر» فى الستين من عمرها، ظل «إميل» دون وعى يرقب هذه المرأة الغريبة وهى تتناول طعامها برشاقة متناسياً الحوار الدائر إلى جانبه حتى انتبه لصوت الجرس يدق معلنا انتهاء الغذاء.. فبدأ الجمع يتجه إلى قاعة الندوات.

بدا الجو المخيم على القاعة أكثر مرحًا، فقد طلبت «إيكر» من الحاضرين بلهجة يغلب عليها الطابع السويسرى الألمانى أن ينشدوا إحدى مقطوعات الفلكلور الأمريكى.. واندمجت المجموعة – التى تلتقى لأول مرة – فى الغناء بروح جماعية متآلفة على أنغام الجيتارين المستخدمين فى العزف الموسيقى.

بعد توقف الغناء تحدثت «إيكر» لبضع ثوان طالبة من كل شخص أن يقوم بدوره بإلقاء الضوء على سبب مجيئه بطريقة موجزة.. وخلال خمس دقائق ساد التوتر أرجاء القاعة..

كانت القصتان اللتان تصدرتا الندوة غير مؤثرتين فهما لامرأتين إحداهما من نيويورك والأخرى من بوسطن.. الأولى جاءت لأن والدتها تموت ببطء ولا تدرى ماذا يمكن أن تفعل من أجلها.. والثانية لأنها تشعر بآلام غريبة فى جسدها.

بدأ «إميل» يتثاءب معتقدًا أن الملل سيخيم على تلك الجلسة التى لابد أن ينتظر فيها دوره بعد ثلاث ساعات متصلة.. ولكن ماذا سيقول ليبرر حضوره؟ إنه لا يدرى حتى الآن..

وهنا قامت شابة جميلة ذات شعر أحمر طويل لتروى مأساتها التى زادت من وجوم الحاضرين.. لقد توفى زوجها بعد أن عانى الكثير بسبب إصابته بسرطان العظام.. وانخرطت فى البكاء كأنما وجه إليها لكمة شديدة فى صدرها ولم تستطع أن تكبح دموعها التى حالت دون إكمال بقية القصة.

وشعر «إميل» بجفاف فى الحلق ولاحظ أن الشخص الأسمر الجالس بجواره يحاول هو الآخر ابتلاع ريقه وهما يتابعان بأعينهم المرأة البائسة.. بعدها صرخت سيدة أخرى فى حرقة ولهجة غير مفهومة تميز أهل الجنوب: «لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت..» وأخذت تبكى بدورها وسمع «إميل» صوتاً هامساً يتساءل عما يهدد حياة هذه المرأة.. «إنه سرطان الدم» أجاب أحد الحاضرين فى هدوء..

الآن.. بدت الوجوه شاحبة، وجاء دور الشخص الخامس وكان رجلاً أبيض ذا لحية سوداء وهو طبيب نفسى تؤرقه وتتزاحم فى رأسه آلاف الأسئلة حول الطريقة التى يمارس بها مهنته.. وأسهب الطبيب فى الحديث فتجاوز الوقت المحدد له مما أتاح مهلة صغيرة لالتقاط الأنفاس بعيدًا عن المآسى.. ولكن الشخص السادس جاء ليزيد من توتر الجميع... مهندس شاب، رياضى، فقد

ابنه الصغير منذ عشر سنوات ولازال يعانى حتى الآن من فراق صغيره.. وفجأة انهار الرجل ذو الشارب الكثيف وانهمرت دموعه وكانت صدمة للجميع أن يبكى رجل يتمتع بكل صفات الرجولة بهذه الطريقة المؤسفة وهو يصرخ: جيمى! صغيرى جيمى..!» وكأنما نكأ الرجل جراح من حوله وأيقظ أحزانهم التى نسوها لوهلة وهم يتابعون مأساته فشاركه الكثيرون البكاء.

توالت القصص.. و «إيكر» ساهمة لا تقول شيئاً.. ملامحها هادئة ولكن نظراتها ثاقبة ترقب المتحدث باهتمام.. وذكر البعض أنهم لا يستطيعون على وجه الدقة تحديد سبب مجيئهم لحضور هذه الندوة.. واستفاض البعض الآخر فى شرح أحزان غير مؤثرة. وبين الحين والآخر يفجر أحد الحاضرين مأساة حقيقية تنفطر لها القلوب وتدمع لها العيون.

عندما دق جرس العشاء كان الجمع قد أوشك على الانتهاء من إخراج مافى جعبته. الآن سقطت الأقنعة وظهرت مواطن الضعف فى هذه الشخصيات التى يختفى داخل كل منها طفل صغير ضعيف أمام مشاكله الخاصة.. أن أغلبية الحاضرين يواجهون محناً قاسية.. بينهم اثنا عشر شخصاً مصاباً بالسرطان وخمسة من الشواذ جنسيا مصابين بمرض فقدان المناعة (الإيدز) القاتل وست أرامل وستة آباء لم يستطع الزمن مداواة فجيعتهم فى وفاة أطفالهم.. وظهر أيضاً ضمن هذا الجمع خمسة محاربين شاركوا فى حرب فيتنام وأصيبوا بسببها بحالة من الانهيار النفسى.

وشعر «إميل» بأن همومه قد تبدو تافهة أمام هذا الطوفان من المآسى.. فهو ينتمى للقلة التى تتمتع بصحة جيدة، كما أنه لا يحمل بين جنباته حزناً دفيناً.. وعندما جاء دوره فى الحديث فوجئ بصوت مرتجف يخرج من أعماقه مؤكدًا أن فكرة الموت طالما أزعجته وأيقظته ليلاً فى حالة رعب وهلع خاصة بعد أن ارتبط بامرأة عمره وأحب معها الحياة حتى أصبح يخشى الموت..

وأخيراً انتهت الجلسة وقام الحاضرون عيونهم حمراء وأجفانهم منتفخة من كثرة البكاء وهبطوا إلى قاعة الطعام وقد انتهى جو المرح الذى ساد بينهم فى البداية.. وحتى ذلك الحين لم يكن «إميل» يعلم شيئاً عن الندوة التى ستعقدها «إيكر»..

الشعاع القاتل

مراكش – باريس

ماذا دهى هذا الغلام المتطفل ؟ يعبر المحيط الأطلنطى ليسجن نفسه بين أحزان مجموعة من المحتضرين ؟

اللعنة على تلك التجارب التى يقال إنها تصنع الرجال! إن «إميل» نفسه مهموم بخوفه الشخصى من الموت.. فرغم أنه مسيحى الديانة إلا أن الأحزان العديدة التى اعترضت طفولته قد أفقدته الإيمان بدينه! وهنا حيث العيون متفجرة بالدموع والوجوه مخنوقة بانفعال الذكريات، والوجدان مليئة باليأس المبتور، تضيع هباء نصائح القساوسة ومحاولتهم تخفيف آلام هؤلاء الأحياء الأموات.

وتعود به الذاكرة إلى فجر ذلك الصيف الكئيب عندما كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً.. كان الظلام يخيم على المكان عندما استيقظ «إميل» فجأة وتحسس سريره فى الغرفة الكبيرة الخالية من الأثاث فى المعسكر، كانت عائلته قد تم ترحيلها مؤخرًا من المغرب فشهدت أيامًا عصيبة فى بيت حقير بلا كهرباء ولا ماء بالقرب من بلدة «كاستر»..، كان والده يبذل قصارى جهده لإقناع الممولين بفائدة التوسع فى مشروع رعى الأغنام بالبلدة وإخوته يذهبون للمدرسة بنفس الملابس يوميًا.. كان الفقر، وتدهور مستوى المعيشة هما السمة الغالبة فى حياة العائلة.. هو وحده استطاع أن يجد طريقًا أفضل فقد كان ملحقًا بإحدى الكليات فى باريس.. ولكن عودته كل صيف للبقاء مع أهله واسترجاعه لصدمة المنفى كان يعكر صفو حياته ويجعله يهب من نومه مذعورًا، قبل ظهور نور الفجر الأبيض، فيغمره ضوء باهت ضعيف، كاكى اللون يملأ

الحجرة ويشعره بالكآبة والاشمئزاز، ويرتعد جسمه رغم حرارة جو الصيف.. إن تلك البقعة الضوئية ذات اللون الكاكي تذكره بالموت!، ولكنه لا يدرى السر وراء ارتباط ذلك الضوء الكريه بالموت.. ليس موته فقط وإنما موت الجميع.. الفتيات الجميلات والأطفال وحتى الكلاب !

وأخيراً اكتشف «إميل» السر وراء هذا المنظر الغريب.. إن النافذة لا يمكنها حجب ضوء النهار من اختراق الغرفة، ولكن ورق التغليف الذى غطى النوافذ من عشرين عامًا – منذ وقت الحرب –ليحميها من التحطم هو الذى يعطى ضوء الفجر هذا اللون الباهت الكئيب الذى لم يُمح قط من ذاكرته..

منذ ذلك اليوم و«إميل» يستيقظ تقريباً كل ليلة وجسمه يتصبب عرقًا وأطرافه مثلجة، وفكرة الموت تطارده ببشاعة.. وحتى بعد زواجه لم يستطع وجود زوجته «نادية» الشابة السمراء الدافئة إلى جواره أن يزيل رعبه..

«كلنا سنواجه الموت حتى ابنى» هكذا كان يردد دومًا فى هذيان وهلع.

وفى إحدى الليالى، صرخ «إميل» فزعًا فاستيقظت «نادية» على صراخه وضمته إلى صدرها قائلة: «إنك تزعجنى يا حبيبى.. حاول أن تنام». ولكن «إميل» تسمر فى مكانه وكأنما مسه السحر وأخذ يردد فى هدوء لزوجته: «كيف يمكن لنا أن ننسى الموت لحظة واحدة.. كيف يقبل الناس على أعمالهم رغم علمهم التام بأنه لا دوام لحال؟». وتحيطه نادية بذراعيها وتجيبه:«إنك ستصل إلى المجد وستصبح ثوريًا عظيمًا فى يوم من الأيام، وستترك وراءك ذكرى خالدة.. ولكن نم الآن أرجوك..»

وانتزع «إميل» نفسه من أحضان زوجته، وألقى بنفسه على الأرض وجلس واضعًا رأسه بين كفيه يردد فى همس: «إنها لا تفهم شيئاً هى أيضًا.. إننى بحاجة لمعجزة من الله حتى يشفينى من مرارة الألم والقلق التى تسيطر على كيانى.. إن كل شىء إلى زوال حتى الشهرة والعالمية!»

ولم يستطع «إميل» أن يتخلص من همومه إلا مع اشراقة الصباح.. فنام منهك القوى..

رحلة إلى عالم غريب

روتردام

شعر الدكتور «سيمبسون» باختناق، وامتدت يداه إلى رقبته فى محاولة يائسة لنزع الأنابيب الخضراء والبيضاء التى تخرج من أنفه وحنجرته.. حاول أن يتكلم ولكن صوته كان أضعف من أن يسمع.. نظر المريض من النافذة التى يكسوها الضباب فى المستشفى وأخذ يرقب الثلج المتساقط على «روتردام»، بينما تقوم الممرضة الضخمة البنية بتغيير زجاجات الأدوية والحقن إلى جواره..

وفجأة غاب المريض عن الوعى.. وأطلقت الممرضة جرس الإنذار.. لقد توقف قلب الدكتور «سيمبسون» الذى يبلغ من العمر ٧٢ عامًا وبدا أنه دخل فى الغيبوبة الأخيرة

حضر فريق الإنعاش بعد ثلاث دقائق.. وأبدى طبيب حديث التخرج استياءه من زيادة وزن الدكتور «سيمبسون».. إنه لا يتنفس!! وقام الطبيب بقياس النبض ولكن يبدو أن المريض قد مات، فتبادل نظرة تساؤل حائرة مع طبيب التخدير حول جدوى محاولة إنعاش قلب المريض.. إنه ميت لا محالة.. ولكن الطبيب ساوره القلق لنقص خبرته، فقرر حقن المريض بمنشط قوى للقلب يكفى لتنشيط قلب حصان.. وانتظر الطبيب دقيقتين بعد حقن المريض ولكن بدون جدوى.. لقد مات الدكتور «سيمبسون» ! وأشار الطبيب إلى الممرضة برأسه دون أن يتفوه بكلمة وخرج يتبعه باقى أفراد فريق الإنعاش..

أمسكت الممرضة بيدى الميت لتضعها إلى جواره.. وفجأة انطلقت منها صرخة جاء على أثرها الطبيب مهرولاً.. لقد أفاق الميت.. وأحدث منشط

القلب نتيجة مذهلة! ولكن الأمر الذى بهر الجميع هو أن يقوم المريض ويعتدل فى جلسته رغم كل الأنابيب التى تكبل حركته، ويطلب فى صوت هامس متعجلاً: «ورقة وقلم.. أريد أن أسجل شيئاً هامًا !»

بدا فريق الإنعاش فى حالة من الذهول.. وأخيرا تحركت الممرضة لتجيب طلبه ومنحته مفكرتها الخاصة وقلمها.. وبدأ الميت الحى يكتب بيد مرتعشة دون أن يضيع لحظة واحدة. ماذا يكتب؟ إن ما يحكيه يعد نوعًا من الهذيان أو الجنون..

«لقد شعرت بأننى غبت تمامًا عن الوعى – (هكذا بدأ الطبيب العجوز ملاحظاته بعد أن كتب بإيجاز عن حالته الصحية التى كادت تجعله فى عداد الأموات). – وكأننى انزلقت إلى عالم غريب تمامًا.. عالم مخيف لم أر نفسى فيه بصورتى الطبيعية، ولكننى كنت عبارة عن مكعب معلق فى شىء ما..»

«وما كدت أستوعب صورتى الجديدة والغريبة حتى شعرت بمن يقترب منى.. إنها كائنات غريبة ليست على هيئة مكعب مثلى، ولكنها دائرية.. وقد بدأت أدرك وجودها وهى تقترب ببطء – رغم أننى لا أملك حالياً أى حاسة تقليدية من حواس البشر – لقد أرادت هذه الكائنات الدائرية أن أصبح مثلها.. فانتابتنى حالة من الرعب ولم أكن أفهم شيئاً مما يدور حولى، ولكننى شعرت بالتهديد فصرخت فيهن: ابتعدن عنى.. وحاولت أن أنطوى على نفسى بقدر الإمكان..»

«ولكن هذه الكائنات الرهيبة ظلت مكانها تحيط بى وتلمسنى بين حين وآخر وكانت لمساتها تزيد من رعبى.. لقد كنت أشبه بسجين فيلم مرعب وظللت أصرخ: لا تلمسننى.. إننى لا أريد أن أصبح مثلكن..»

«طوال حياتى لم أشعر بمثل هذا الخوف المرعب.. إنه الخوف من المجهول.. لقد شعرت بأن هذه الكائنات كانت تسخر منى مما كان يضاعف من رغبتى

فى إبعادها عنى.. إننى أعرف أن كلامى يبدو مشوشًا، وغير منطقى ولكن هذه هى تجربتى فى عالم الموت..

وأخيرًا توقفت الكائنات الدائرية على مسافة منى دون أن تختفى وعندئذ رأيت نفسى فى أرض جرداء وكأننى مدفون فى رمال الصحراء.. ليس هذا بالكابوس العادى ولكننى أحسست بالضياع..

وأخيرًا تحول «مكمبى» إلى صورة إنسان ووجدت نفسى فى سريرى بالمستشفى وإلى جوارى الممرضة.. فطلبت منها أوراقا وقلمًا لأسجل ما رأيته فى هذه الرحلة القصيرة العجيبة..

قد تتساءلون عن سر تعجلى لتدوين هذه الخيالات.. ولكننى ما كدت أستيقظ حتى شعرت بضوء غريب يملأ رأسى.. لقد استرجعت المشهد كاملاً.. وفى أقل من لمح البصر أيقنت أننى كنت مخطئاً وأن تلك الكائنات الغريبة لم ترد بى شرًا.. بالعكس لقد كانت بالفعل حسنة النية، ولكنها سخرت من خوفى الشديد.. وهذا ما لم أستطع تحمله..

كيف أصف هذا الإحساس الهائل بالندم الذى أستشعره الآن؟.. إن هذا الندم هو الذى دفعنى للقيام، وطلب تسجيل خيالاتي على وجه السرعة.. والآن أشعر أن تلك التجربة القصيرة والسريعة قد قلبت رأسًا على عقب تصورى وأفكارى عن العالم.. إننى على يقين من لقائى مرة أخرى بهذه الكائنات الغريبة.. وأنتظر بفارغ صبر هذا اللقاء ! »

د. فيليب سيمبسون

كان الأمر المثير للدهشة بالنسبة للطبيب المعالج وفريق الإنعاش هو الحيوية الغامضة التى هبطت فجأة على المريض، الذى كان منذ دقائق قليلة يعتبر فى عداد الأموات.. هذه الحيوية التى مكنته بعزم وإصرار من كتابة هذه الرسالة الطويلة.. أما مضمون الرسالة فلم يثر اهتمامهم على الإطلاق !

نشوة الاقتراب من الموت

باريس – لوس أنجلوس

سأقص عليك يا صديقى جو الظروف الغامضة التى جعلت القدر يلقى بى فى هذه التجربة العجيبة.. مع بداية ربيع عام ١٩٨١ كنت وزملائى قد بدأنا إصدار الجريدة التى نعمل بها منذ عدة أشهر.. وبعد الانتهاء من عدد شهر أبريل، هدأت حدة العمل وبدأ كل فرد منا يبحث فى روية بين مجموعة من المجلات عن أفكار لموضوعات جديدة.. وقد جاءت من نصيبى الجرائد الألمانية الشهيرة «شيترن» و «شبيجل» حيث أننى أجيد اللغة الألمانية..

لم تمض ثلاث وعشرون ساعة حتى عثرت على ضالتى.. وكان مقالاً بعنوان «قدم فى الآخرة» فى زاوية أدبية بمجلة «شبيجل» تحمل اسم «أبحاث عن الموت».. إننى أتذكر هذا الموقف تمامًا، فقد كنت على موعد مع صديق على العشاء، وبدأت فى القراءة ولم أستطع أن أرفع عينى عن المقال حتى أثناء هبوط درجات السلم والتجول فى الشارع وحتى وصولى إلى مكان اللقاء فى مطعم «البيتزا» الشهير «ارماندو» بشارع «توربيجو»..

أثناء قراءة هذا المقال أحسست وكأن تيارًا كهربائيًا يسرى فى أوصالى. لقد تناول المقال الرؤى الغريبة للأشخاص الذين عادوا إلى الحياة، وتم إنعاش قلوبهم فى اللحظة الأخيرة بعد أن كانوا على حافة الموت.. كان المقال مؤثرًا رغم أنه لم يتجاوز ثلاث صفحات وموضحا بصور اثنين من المشاهير اللذين واجها الموت فى حوادث رهيبة، كادت تودى بحياتهما وهما النجمة الأمريكية اليزابيث تايلور، والمغنى الشهير «شارل أزنافور»... وإلى جوار صور المشاهير

التى استهدفت جذب اهتمام القارئ، وضعت صورة البطل الحقيقى فى القصة.. إنه دكتور «رونالد سيجل» العالم النفسى بجامعة لوس أنجلوس والذى فسر علميا الرؤى الغريبة للعائدين من رحلة الموت..

لقد تذكرت فيما بعد أننى سمعت بهذه الرؤى المثيرة من قبل، وكانت المرة الأولى من خلال برنامج تليفزيونى.. كان البرفيسور «روبير بلانشار» أستاذ الفسلفة بجامعة تولون (والذى ذهبت للقائه فى وقت لاحق) يشرح للمشاهدين مغامرته الفريدة من نوعها.. كان يبلغ تسعة عشر عامًا عندما أجريت له عملية فتق فى مستشفى «بواتييه».. وبعد انتهاء الجراحة شعر روبير بأنه بدأ يسترد الوعى ولكن خارج جسده.. كيف حدث ذلك؟! لقد شعر بنفسه يسبح فى فضاء خالٍ «مربع» تعلوه السحب. إنه الموت بلا شك! والغريب أن تلك الحالة الشعورية بدت له ممتعة فلم يشعر أبدا خلال حياته بمثل هذا الإحساس الرائع، لقد كان هادئاً جدًّا، حرًّا تمامًا مثل الهواء.. وفى لحظة خاطفة جذبته قوة غامضة إلى أسفل وحاول أن يقاوم العودة ولكن دون جدوى.. كانت الجاذبية تشده بقوة إلى أسفل تجاه جسده المادى، ورأى روبير جسده من فوق ممددًا فاقد الوعى على بعد أمتار قليلة والراهبات الممرضات يحطن به من كل جانب.. استمر هذا المشهد لحظة واحدة ثم حضرت رئيسة الممرضات وبدأت تصفع الشاب بعنف حتى يفيق.. وهنا حدث شىء لم يُمْح قط من ذاكرة روبير، فقد شعر أنه يدخل داخل إطار جسده تدريجيًّا، وكأنما يرتدى ملابسه من قمة الرأس.. وكان انطباعًا مؤلمًا أن يشعر القادم من عالم الموت بالمعاناة أثناء عملية الانزلاق داخل جسده، وكأنما يرتدى مقاسًا أصغر بمراحل من مقاسه الفعلى.. وعندما استقرت نظراته أخيرًا خلف عينيه وكأنه يرتدى نظارة، بدأ الجسد الهامد يتحرك وتنفست الممرضات الصعداء فقد ظنوه ميتًا لا محالة.

أعقبت رواية البروفيسور «بلانشار» فى البرنامج التليفزيونى قصص أخرى أكثر غرابة لبعض الناجين من الموت.. قال العائدون إنهم بمجرد شعورهم بالتواجد خارج أجسادهم جذبهم ضوء باهر متألق تنبعث منه «طاقة حب

لا نهائية» وكان الضوء الذى ينبثق من أغوار نفق عميق يجذبهم إليه وكأنهم فراشات هائمة..

وشملت بعض الرؤى فى رحلة الموت تفصيلات أخرى عجيبة.. قصور من الكريستال وفراشات ضخمة، ومواكب راقصة يقودها الآباء الذين سبقوهم إلى العالم الآخر منذ زمن طويل..

هذه الرؤى الغريبة لابد لها من تفسير علمى لدى الدكتور «رونالد سيجل»، على الأقل بحكم معرفته الطويلة وخبرته بكيمياء المخ.. فالمخ البشرى عالم ملىء بالأسرار يحتوى على مئات المليارات من الخلايا العصبية التى ترتبط ببعضها بآلاف الجسور..

إن القدرة العجيبة لهذه الخلايا على نقل الأحاسيس والأفكار لا يمكن أن يضاهيها أى كمبيوتر مبرمج على أحدث نظام علمى.

قرأت عددًا من المقالات حول «العقدة العصبية» – موضع اتصال خلية عصبية بأخرى – عام ١٩٧٧ عندما قررت الجريدة التى أعمل بها تخصيص جزء أكبر من مساحتها للموضوعات العلمية.. وفى عام ١٩٨١ احتلت «العقدة العصبية» مكاناً بارزاً بين أبحاث المؤتمرات العلمية فى علم الأعصاب.

باختصار فإن آلاف المليارات من العقد العصبية داخل المخ البشرى تختزن داخلها المعلومات التى تساعد الإنسان على البقاء وتنقلها إليه عن طريق رسائل كيميائية.. فهناك رسائل توقظ من النوم.. وأخرى تسبب الضحك، وغيرها تحرك الغرائز الجنسية وتفتح الشهية للطعام وتطلق الرغبات فى الجرى أو النوم أو حتى فى أن تعض شخصًا ما..

إنه خليط عجيب قد نعتبره صيدلية حقيقية، أو سيمفونية كيميائية تنتشر فى مليارات الخلايا وبرسائل مختلفة فى نفس الوقت.. والمخ هو المهيمن الأول على تصرفات الإنسان لامتلاكه أكبر مخزون من المواد الكيميائية التى يفرزها الجسم بصورة طبيعية أو بتأثير عقاقير طبية، فتحول الإنسان من حالة

لأخرى فى فترة وجيزة.. فالمورفين الذى يفرزه مخ الإنسان مثلا يساعد على تسكين آلامه الجسدية.. ويختلف تأثير العقاقير باختلاف جرعاتها.. إذ أن تعاطى جزء من المليون من جرام «السيروتونين» أكبر من المعدل المطلوب يؤثر على المخيخ فيحول الإنسان من حالة المرح إلى الغضب ومن الخمول إلى النشاط أو اليأس تبعًا للجرعة..

ويشرح الدكتور «رونالد سيجل» فى المقال الذى نشرته الجريدة الألمانية سر النشوة الغريبة التى يشعر بها المحتضر، وهو يضع إحدى قدميه على أبواب الآخرة.. فعندما يشعر الكائن الحى باقتراب الموت يفرز المخ كمية ضخمة من العقاقير داخل الخلايا العصبية محدثًا بذلك جرعة زائدة داخلية وطبيعية تخلق نوعًا من السعادة لدى المحتضر.

وهكذا يؤكد الشهود الذين مروا بتجربة الاقتراب من الموت لجريدة (شبيجل) أننا جميعاً سنشعر بهذه الجرعة الإضافية الجميلة والتى ستضمن لنا رحلة ممتعة مع اقتراب نذير الموت.. إذن لا داعى للفزع من فكرة الموت أو المحطة الأخيرة فى حياة كل كائن حى.. إن رهبة الموت قد غلفت بأطار جميل ساخر فأصبح لقاؤه وكأنه موعد مع السعادة!

وفى صباح اليوم التالى عرضت الموضوع على مجلس التحرير فى الصحيفة وقد أثارت اهتمام الجميع فكرة (رؤية الموت كما تفسرها كيمياء المخ) أو بمعنى آخر (دور الموصلات العصبية) فى المحطة الأخيرة.. إن الموضوع فى حد ذاته مثير وغامض لتعلقه بفكرة الموت ولا يحتاج لاستخدام مزيد من التعبيرات المؤثرة.. وأيقنت أن معرفتى بكيمياء المخ ستتيح لى تفسير هذه الرؤى. فليحيا العلم !

قطعت التذكرة إلى أمريكا فى طريقى للقاء العالم النابغة الدكتور (رونالد سيجل) أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا.. وفى لوس أنجلوس التقيت به، كان وجهه مألوفاً لدى منذ رأيت صورته فى مقال (شبيجل) بنظارته الطبية

وشعره الطويل وروحه المرحة.. كنت أحاول خلال الرحلة أن أتخيل كيفية اكتشاف هذا العالم لسر الجرعة الزائدة وراء رؤى الموت.. إنه عالم نفسى وليس متخصصا فى كيمياء الجهاز العصبى.. ولكنه بالطبع اشترك مع باحثين آخرين فى التوصل لهذه النتيجة.

وانتظرت بفارغ الصبر لقاء العالم النفسى وأنا أمسك بالمقال بين يدى وانتبهت على إضاءة أركان الطائرة بكلمات (أربطوا الأحزمة) وبدأ أحد المسافرين يضحك بصوت عال ربما ليتناسى أنه يجلس على ارتفاع عشرة آلاف متر فوق سطح الارض! أما عن نفسى فقد كنت أشعر بحزن صامت وحنين إلى الوطن رغم فضولى وشغفى المتزايد لمعرفة سر الجرعة الزائدة..

إن العلم يحطم بتقدمه المتواصل كثيراً من الروايات الخيالية التى ارتبطت قديماً بذهن الانسان والتى قد يكون لها بالفعل أساس علمى.. تقول نظرية (بيج بانج) أن هذا الكون كان يرتكز فى نقطة من لا شىء أصغر حجماً من رأس الدبوس منذ ثمانية عشر مليارات من السنين ! إنه شىء خارق للزمن والمكان ومع ذلك فإن ٩٠٪ من العلماء يقرون هذه النظرية التى تبدو لى وللكثيرين وكأنها أسطورة خيالية.

إن نظرية «بيج بانج» قابلة للتغيير مثلما حدث لتصور الإنسان القديم للموت والذى بدله الدكتور «سيجل» رأساً على عقب.. إننى أتخيل هذا البروفيسور بطلاً لأحدى الأساطير اليونانية..

وأفقت من تأملاتى الغريبة لأجد أمامى ساعات طويلة أخرى قبل الوصول إلى «لوس أنجلوس»، فأخرجت من حقيبتى بعض الأوراق التى عثرت عليها فى باريس فى اللحظات الأخيرة.. معظمها تقارير طبية عن أشخاص خاضوا تجربة الموت لبضع دقائق..

فى إحدى غرف الإنعاش المجهزة ترقد المريضة وحولها الأطباء يتابعون مؤشرات جهاز رسم القلب ويقومون بعملية شفط للمخاط لتسهيل التنفس..

وفجأة توقف القلب والتنفس لمدة ثلاث دقائق.. وأصر الجراح على عمل شيء.. فقام بتدليك صناعى لقلب المتوفاة لمدة خمس عشرة دقيقة وهى مازالت تحت تأثير المحاليل الطبية.. أخيراً عاد القلب ينبض وأفاقت المتوفاة من غيبوبة الموت والجميع فى حالة ذهول يحاولون تهدئتها، وهى تهذى بكلام غير مفهوم وتصرخ: «لا أريد أن أعود».. ماذا حدث؟ وأين كانت هذه المرأة ؟!

عندما استردت السيدة هدوءها بدأت تقص بعض الحكايات.. (لقد مررت بالعديد من الأضواء التى استقبلتنى بترحاب بالغ حتى وصلت إلى طاقة كبرى تشع نوراً نقياً منحتنى إحساساً بالنشوة والمتعة وكأنها شمس مشرقة تسلط أشعتها على من حولها.. لقد كنت فى نعيم الآخرة! ولم تستطع هذه السيدة أن تنسى أبداً التجربة الممتعة التى بددت لديها أى شعور بالخوف من الموت..

استغرقت فى قراءة عشرات القصص المماثلة حتى أعلنت المضيفة عن هبوط الطائرة فى «لوس أنجلوس».. لم يبق أمامى سوى لحظات لإلقاء نظرة سريعة على آخر أوراقى.. إنه كتاب صغير غلافه أحمر أهداه لى صديق ليلة السفر وقد بدا لى غريباً حتى فى عنوانه.. (كتاب أهل التبت عن الموتى)، لغته غير مفهومة كأنها طلاسم! تقول بعض سطور الكتاب: «فى نفس الوقت يظهر الضوء الأخضر الشاحب لعالم الحيوانات. وتشعر أن قوة خيالاتك تدفعك للخوف من الضوء ذى الألوان الخمسة.. وتحاول الهرب ولكنك تجد نفسك مشدوداً نحو الضوء الأخضر الشاحب.. لذلك يجب أن تنسى خوفك من الضوء وألوانه الخمس بل وتسعى إلى معرفته عن قرب».

لم أفهم شيئاً مما قرأت ولم ينقذنى من محاولة فك هذه الطلاسم سوى وصولى إلى «لوس أنجلوس».

إنها أولى رحلاتى إلى «لوس أنجلوس».. أحببت المكان فور رؤيته.. إنه يشبه شمال أفريقيا.. نفس المبانى والأشجار والنخيل والرياح الشرقية التى

تهب عليها. كانت فيلا الدكتور «رونالد» فى قلب «هوليوود» متواضعة. واستقبلنى الرجل بابتسامة هادئة..

فى مدخل البهو فوجئت بسيدتين فى مقتبل العمر تجلسان فى وضع القرفصاء،تقومان بفرز كميات كبيرة من روايات الرعب وكتب التحليل النفسى.. وامتلأت الجدران ببعض الرسومات عن مدمنى الكوكايين وأخرى لجماعات هندية تؤمن بالقوى الخارقة للطبيعة وتسجل فى لوحاتها الأساليب المبتكرة فى التأمل.

قال لى البروفيسور «سيجل» الخبير فى طب العقاقير أنه جعل من جسمه معملاً خاصاً بتناوله الكثير من العقاقير ليتفهم جيداً تأثيرها عليه.. ولكنه عاد ليؤكد أن شخصيته لم تتغير ولم تتأثر بهذه التجارب الخطيرة..

كانت بداية لقائى بالبروفيسور «سيجل» مطمئنة، فقد خشيت أن يكون من أولئك العلماء المنعزلين عن عالمنا، فيشرح لى الحب مثلاً على طريقة اكتشاف جزئيات الحب لدى الفئران.. ولكنه شرح لى ببساطة أن الخيالات التى يراها المحتضر تتشابه تماماً مع تلك التى يشعر بها الشخص العادى عند تعاطى بعض الأدوية المخدرة.. «وعندما يحتضر الإنسان تنخفض حيويته وتقل طاقته وتضعف حواسه وتتلاشى تدريجياً صلاته بالعالم الخارجى.. إن الأمر يشبه إغلاق نوافذ المنزل بإحكام فتصبح حالة الوعى لدى المحتضر منغلقة تماماً على نفسها، ولا يرى شيئاً من العالم الخارجى وفى المقابل يجد انعكاس ظله على زجاج النوافذ المغلقة ويتخيل أن العالم يقف عند هذا الحد وكأنه يشاهد عرضاً سينمائياً لرغباته المجنونة المكبوتة، التى تظهر أمامه فجأة على شاشة عرض خاصة جدا، فيتخيل المحتضر نفسه وسط مزارع خلابة وأشجار تتحدث وفراشات عملاقة.. ويرى فى بعض الأحيان مشاهد غريبة.. إن هؤلاء المحتضرين يعلمون جيداً باقترابهم من حافة الموت، ومن ثم يتخيلون أنفسهم فى الجنة ونعيم الآخرة».

ويستطرد محدثي قائلا: إنك لا تستطيع سوى أن تقدر وتعجب بهذه الأوهام الخادعة التى يزودنا بها المخ فى اللحظات الأخيرة من الحياة، بل إن الإنسان ليتمنى أن يمر بهذه الخيالات الحالمة.. ومن منا لا يفضل الإحساس بالسعادة حتى ولو كانت سراباً عند اقتراب الموت بدلاً من الوقوع فى دائرة اليأس وهو يعى تماما أنه يغادر عالم الأحياء ؟! إنها ظاهرة تستحق الدراسة..

وهى بالفعل السبب الذى جئت من أجله إلى «لوس أنجلوس» متشوقاً لمعرفة المزيد من الجرعة الزائدة أو الدور النهائى للمواصلات العصبية فى المخ فى اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان.

– إنه أمر يسهل تصوره ولو أنه خارج تخصصى ولا أريد الاستطراد فيه.

– مجرد تصور؟! ولكن مقال شبيجل يتناول عملية كيميائية محددة تحدث داخل الجهاز العصبى يحدث بها خلل أثناء سكرات الموت..

– نعم، أجاب «رونالد سيجل» بنبرة هادئة.. ولكن هؤلاء الصحفيين الألمان اختلط عليهم الأمر قليلاً.. إننى عالم نفسى وكيمياء الأعصاب لا تدخل ضمن تخصصى.. ولكنى استنتجت أن بعض المواد المسكنة للآلام تفرز فى المخ فى اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان.. فاكتشاف دور الهرمونات فى العقد العصبية لايزال – كما تعلم – حديث العهد.. لنتنظر قليلاً وستوصل إلى الحقيقة وراء ما يحدث للكائن الحى عند إحساسه بأن الموت وشيك الوقوع.

هل الحقيقة مجهولة.. أم حدث سوء تفاهم؟ وهل جئت من فرنسا خصيصاً من أجل إكتشاف لم يتوصل إليه هذا العالم بعد؟ لقد تخيل «سيجل» الأمر فقط دون أن يدرس أسباب تلك الزوبعة العصبية التى تطلق الجرعة الزائدة فى المخ.. ولكنه بالتأكيد قد توصل إلى شىء ما فى تحليل تلك الظاهرة.. قررت أن أترك مؤقتاً مجال كيمياء المخ. وأسأل الدكتور (سيجل) عن الطريقة التى توصل بها إلى استنتاج الجرعة الزائدة.. لابد أنه حصل على معلوماته من خلال قصص بعض الذين خاضوا تجربة الاقتراب من الموت.

كانت إجابته بالنفى صدمة أخرى لى... فهو لم يهتم على حد قوله باستقصاء المعلومات من أصحابها، ولم يستفسر عن شىء ولو بسؤال حالة واحدة! يقول محدثى: «إن العديد من الأبحاث قد تناول هذه الظاهرة فى السنوات الأخيرة وتكفى قراءة واحد منها لتفهم تأثير العقاقير على حالة الوعى لدى الإنسان والتى تشبه تماماً مفعول الجرعة الزائدة من حيث التفاعل الكيميائى لخلايا المخ».

تعجبت كيف أن البروفيسور الكبير لم يهتم بدراسة هذه الظاهرة.. إنه لايبدو مخادعاً ولكن سلوكه المتحفظ ينم عن خوفه من شىء ما.. حاولت أن أنقل إليه إحساسى قائلاً: (قد تخشى ياسيدى مثلاً عدم مواكبة أوروبا للأحداث العلمية المتطورة فنحن مازلنا نؤيد الحد من انتشار المفاهيم والسلوكيات الغربية ولكن أمريكا – كما ترى – هى بلد العجائب والأطباق الطائرة وقبائل (كوكلوكس كلان).

ويجيبنى «رونالد سيجل» وقد بدا على وجهه الضيق: «هناك موجة من المكارثية النفسية أو الإرهاب الفكرى تحاول أن تغمر بعضنا من صفوة علماء هذا البلد ففى الستينات اهتم أطباء علم النفس بما يسمى «الـ اس. دى» عقار الهلوسة – وأكدوا أنه سيحدث انقلاباً فى هذا الكوكب.. واليوم اتجهت أنظارهم إلى شىء آخر هو: «ان. دى. اى» وهى اختصار تعبير (تجربة الاقتراب من الموت) وما يعقبها من خيالات ورؤى مختلفة.. وبذلك يجد هؤلاء العلماء للظواهرغير المنطقية أساساً علمياً! وهو أمر يثير القلق..

بدأ حديث البروفيسور يشد انتباهى فقد ألقى الضوء على قضية هامة.. إنه لم يتعامل مع هذه الظاهرة باعتباره رجل علم ولكن بحرص رجل المبادئ على عدم التعرض إلا للحقائق العلمية الثابتة، ولذا لم يشأ الاستطراد فى اقتراض نظريات حول هذه الظاهرة دون بحث أو دراسة..

فالأبحاث التى ترتكز حول الموصلات العصبية تدعمها أساساً الصناعات الدوائية. وفى هذا المجال تتعدد الاكتشافات فلا يكاد يمر أسبوع واحد دون

أن تعلن المجلات العلمية عن اكتشاف عقار جديد للمخ: «دواء للخوف».. «دواء للحب».. و«دواء للذكاء» ويحاول آلاف الباحثين فهم كيفية تأثير هذه العقاقير على المخ حتى يتسنى لهم مساعدة الإنسان للوصول إلى حالة التوازن الكيميائى الداخلى – كما يطلق عليها البروفيسور «لابورى» – أو بمعنى آخر السعادة الشخصية.. وللأسف فإن أياً من هذه الاكتشافات لم تتم فى المجال الذى يهتم به محدثى.. وهنا طرأ لى سؤال ساذج فسألت «رونالد سيجل» عن أعدائه الذين يحاربهم ؟!

قبل أن يجيبنى اصطحبنى العالم النفسى إلى غرفة مجاورة وأمام مكتبته الخاصة أشار إلى سلسلة من الكتب ذات أغلفة متعددة الألوان وقال: «إنهم كثيرون فهم يستغلون القصص الغريبة والشعارات الرنانة حول الموت ليحققوا ثروات ضخمة. هذا كتاب بعنوان **«صوت من الآخرة»** للعالم النفسى (ت. و) و**«قضيت ثلاثين دقيقة مع الأموات»** من تأليف إليزابيث.هـ (ربة بيت بسيطة أصبحت وسيطة بين البشر والأرواح فى مجال التنويم المغناطيسى)، أما كتاب **«الموتى يتصلون بنا»** فهو من تأليف القس الموقر جى، وهناك أيضاً كتاب **«الموت غير موجود»** للمحلل النفسى (س).

لقد أدركت اللعبة أخيراً.. إنه سوق ضخم أثرى من خلاله هؤلاء الذين يدّعون العلم ويتاجرون به !

وعندما أبديت دهشتى من أن يؤثر هذا التيار فى بعض صفوة العلماء على حد قول البروفيسور.. أكد لى أن الشىء الغريب دائماً ينال أكثر من قدره، فهو يجد باستمرار من يدفع به للأمام بل وقد يسلم به بعض الأذكياء..

ولكن الشىء المؤكد هو أن أزمة القيم والأخلاقيات تبعث فى نفوسنا مخاوف قديمة فى أعماقنا حُجِبت عن وعينا فى الحياة اليومية.

إنه لأمر غريب أن يشعر الجميع حتى هؤلاء العلماء المخادعون بالخوف ولكن كل منا بلاشك أسير إحساسه بالفزع من شىء ما.

لقد طلبت من رونالد سيجل إعطائى أسماء بعض العلماء من أنصار النزعة الظلامية التى تسعى لترويج المفاهيم الغريبة، وتحاول أن تنشر قلوعها فوق المجتمع العلمى.

-أعتقد أنك سمعت عن الفقرة الشهيرة فى السيرك التى تقدمها مدام (كوبلر - روس).

- ومن تكون هذه المرأة ؟

- إن لم يكن هذا الاسم «إليزابيث كوبلر - روس) يعنى شيئاً بالنسبة لك فلابد أن تشترى العدد الأخير من مجلة «بلاى بوى» حيث يوجد حوار مع هذه السيدة وهذا بالطبع يعطيك فكرة عامة عنها، إن هذه المرأة تدعى كونها طبيبة نفسية وتعقد جلسات علمية من نوع خاص !

ويضحك البروفيسور ساخراً، ثم يدعونى لمشاهدة اللوحات الهندية على جدران المنزل عن قرب، وأستشف من حديثه أن الحوار قد إنتهى.

وقبل مغادرة المكان طلبت اسماء أخرى لبعض العلماء الذين يتاجرون بالقصص الخيالية ورشح لى البروفيسور اسم عالمين هما: رايموند مودى وكينيث رينج، ثم زودنى بنسخة من آخر أحاديثه لمجلة «عالم النفسى الأمريكى» قائلاً: «لابد من وقف هذه المهزلة نهائيا».

روعة الحياة بعد الموت

لوس أنجلوس – جامعة ستورز

كانت هوليوود مشرقة بمناخها الصحو وربيعها المزدهر ولكننى لم أستمتع بهذا الجمال.. فقد أصبت بالإحباط بعد لقائى بالدكتور سيجل الذى قضى على أحلامى فى عمل سبق صحفى علمى.. فحتى مقاله فى مجلة «عالم النفسى الأمريكى» لم يمدنى بأية معلومات تختلف عما ورد فى حديثنا.

أخرجت المقال من حقيبتى، وبدأت أقرأ بعصبية آملا فى العثور على معلومة جديدة، ولكننى لم أجد شيئاً ذا أهمية يصلح مادة لموضوع علمى صغير.

ياللعار! لايمكن أن أعود إلى باريس بخفى حنين.. ويبقى حل آخر.. أن أحول الموضوع إلى مجرد سرد لقصص العائدين من الموت.. ياللبشاعة!، تذكرنى هذه القصص بالأمريكيين الذين يطلبون تجميد أجسادهم بعد الموت حتى لا تتحلل وذلك مقابل عشرة آلاف دولار آملين أن يجد العلم يوماً ما علاجاً لأمراضهم فيتم إحياؤهم مرة أخرى!

– لقد قرأت فى صحيفة (ليبراسيون) الفرنسية عن مأساة ولدين قاما بتجميد جثتى والديهما ووقعا فى شراك جمعية وهمية ابتزت منهما آلاف الدولارات. بدعوى إصلاح الثلاجات المخصصة للجثث واستمرت المهزلة حتى اكتشف الأبناء وجود جثتى والديهما فى حالة تعفن.

فى الحى الذى يمتد بمحاذاة المحيط، وجدت نفسى مستغرقاً فى التفكير رغم الزحام من حولى.. شباب يمارس الرياضة على الشاطئ، وفتيات يغدون فى شرفة الكافيتريا.

لم أجد أمامى خياراً سوى إعادة صياغة المعلومات التى حصلت عليها، ولكن لابد لى من مقابلة نماذج من هؤلاء العلماء المخادعين الذين يحاربهم الدكتور سيجل بضراوة.. ومنهم على سبيل المثال هذه السيدة الغريبة «إليزابيث كوبلر – روس» التى نشر لها مؤخراً حديث فى مجلة «بلاى بوى»

اشتريت المجلة ولكننى لم أجد الحديث المذكور.. لابد أن الدكتور سيجل أخطأ العدد.. وأخيراً حصلت على العدد المطلوب الذى نشر فيه الحديث منذ ثلاثة أشهر واستلقيت على الشاطئ أتابع واحداً من أغرب الأحاديث الصحفية التى قرأتها فى حياتى.

إنها امرأة أنثى.. هكذا تبدو فى صورها الثلاثة التى التقطت لها أثناء إجراء الحديث.. فى الخمسين من عمرها ذات وجه نضر ملىء بالحيوية، مقطبة الجبين وكأنها تبذل مجهوداً لمحاولة توصيل أفكارها للصحفى الذى يدير معها الحوار.

إنها طبيبة نفسية من أصل سويسرى.. تمارس مهنتها منذ بداية الخمسينات فى الولايات المتحدة، ويتوقع لها البعض أن تصبح «أكبر متخصصة غربية فى مساعدة المحتضرين» أو بمعنى آخر نسخة متطورة من الأم تريزا.

تصفحت مجلة بلاى بوى الشهيرة ووقعت عيناى على الصور العارية.. ماذا يعنى وجود مثل هذا الحديث فى مجلة إباحية ؟... تقول المجلة: إن هذه السيدة المشهورة ستتوصل قريباً إلى أسلوب جديد لعقد الجلسات الروحانية.. «ستقوم برحلة خارج جسدها» ! وتضيف إليزابيث «سأظل دائماً نفس الشخصية المتشككة العنيدة مثلما كنت أثناء دراستى للطب فى زيورخ.. إننى إنسانة عملية لا أصدق إلا ما أتأكد منه بنفسى».. ويستمر الحوار :

– كيف تريدين أن يصدقك الناس وأنت تتحدثين عن رحلة إلى عالم الموتى.. إنه شىء غير علمى؟

– إننى لا أحاول إقناع أحد ولا أكترث بما يقال عنى.

بعد سنوات من الشهرة والمجد.. فصلت إليزابيث كوبلر من الجامعة واستقرت مع مجموعة من الأصدقاء فى «إسكونديدو» بأقصى جنوب كاليفورنيا، هناك أسست جمعية (شانتى نيلاية) وهو اسم يعنى بيت السلام بلغة البراهمة.. وأصبح شغلها الشاغل هو مساعدة المرضى الميئوس من شفائهم، وتقديم النصح لهم وخاصة للآباء الذين يصاب أبناؤهم بأمراض قاتلة.

أحسست برغبة عارمة فى لقاء هذه المرأة.. وساعدنى فى ذلك الصحفى الشاعر لويس ماك آدمز - مراسل جريدتنا فى لوس أنجلوس - الذى زودنى بكافة الوسائل للاتصال بجمعية (شانتى نيلاية).

حاولت الاتصال عدة مرات بلا جدوى.. جاءتنى ردود مختلفة.. إنها غير موجودة.. متعبة.. امتنعت عن مقابلة الصحفيين، لقد بدت لى إليزابيث وكأنها حصن يصعب الاقتراب منه فقررت الذهاب بنفسى لاستطلاع الأمر.

على بعد مائة كيلومتر بالسيارة، كان المكان رائعاً.. تلال ذات رمال حمراء وأشجار الصنوبر الخضراء الداكنة ومبانى المزارع المكسيكية التى صممت على هيئة طابق واحد، وترع الصرف التى تحولت إلى حمامات سباحة.

فى مكتب صغير استقبلتنى امرأة شقراء ضخمة البنية تبدو على ملامحها آثار الإجهاد، وقدمت لى كتيباً صغيراً مؤكدة لى أن إليزابيث غير موجودة.. تصفحت الكتيب «اللقاءات القادمة عن الحياة والموت ورحلة الانتقال» مع إليزابيث كوبلر فى نيويورك من ٢٣ إلى ٢٨ أبريل وفى شيكاغو من ٦ إلى ١١ مايو وفى شتوتجارت من ١٦ إلى ٢١ مايو.. وتعقد المؤتمرات يوم ٣ مايو بميامى ويوم ١٢ يونيو فى بال.. إلخ).

وبادرتنى المرأة الشقراء قائلة:

- إن إليزابيث لن تعود إلى كاليفورنيا قبل منتصف يونيو. فبعد جولتها الأوربية ستشارك فى عدة مؤتمرات فى كلية طب دنفر فى كولورادو .

- ولكن ردك عبر التليفون لم يكن واضحاً..

وابتسمت قائلة:

– إنه رد فعل طبيعى بحكم العادة.. فالصحفيون أصبحوا مزعجين فى السنوات الأخيرة.

شردت بذهنى للحظات وأنا أتأمل جدول أعمال مغلق على الحائط.

– ولكنى أعتقد أن الدكتورة كوبلر قد فصلت من الجامعة.. وقاطعتنى فى حدة:

– هناك أكثر من ١٥٠ ألف حلقة دراسية ومؤتمر وندوة وجلسات عمل مختلفة تنظم سنويا حول أعمال إليزابيث.

– وأين يتم ذلك ؟

– فى كل مكان.. فى المستشفيات ومدارس التمريض ودور المسنين والأديرة.. وهنا فى شانتى نيلاية.

نظرت إليها بتمعن متسائلاً:

– وماذا يحدث فى هذه الجلسات التى تنظمها إليزابيث حول الحياة والموت والانتقال ؟

– لا بد أن تشارك بنفسك فى إحداها فمن الصعب وصفها.. إنها تسعى لتخليص الإنسان من السلبية والكبت الانفعالى داخله.

– هذه ببساطة عملية علاج نفسى؟!

– نعم ولكن من خلال الإعداد لمرحلة الموت.

للأسف لم يكن لديها وقت لاستكمال الحديث معى.. كانت مضطرة للطيران إلى بوسطن حيث سافرت مجموعة شانتى نيلاية.

قبل الرحيل سألتها إذا ما كانت تعرف شيئاً عن العالمين رايموند موري، وكينيث رينج اللذين صرح الدكتور سيجل بشكوكه نحوهما، وكان ردها بالإيجاب مفاجأة لى.. إنهم يعرفون بعضهم جيداً. إنها شبكة حقيقية.

وعلمت أن العالم الأول طبيب نفسى فى فرجينيا والثانى أستاذ لعلم النفس بجامعة كونكتيكات.

لدى عودتى إلى لوس أنجلوس بادرت بالاتصال بالعالمين اللذين حصلت على أرقام هاتفهما من السيدة الشقراء..

أخيراً جاءنى صوت رينج عبر الأثير.. ووافق أن يستقبلنى فى جامعة كونكتيكات.

بادرت بحجز تذكرة الطائرة فى شوق للقاء هذا الشخص المريب.

* * *

هناك نوعان من العلماء.. الأول يحترم النظريات الثابتة التى نشأ عليها ويعتبر مهمته الأساسية هى دمج أى اكتشاف جديد يتم التوصل إليه من خلال أى مجال للإدراك.. سواء كان العين أو الأذن أو البارومتر أو الرادار أو غرف الاختبار أو التليسكوب أو حتى جهاز تحطيم نوى الذرة، بحيث يصبح جزءاً مكملاً لهذه النظريات.. وفى حالة فشل عملية الاندماج يقوم هؤلاء العلماء بإستبعاد الاكتشاف الجديد مؤقتا.

والنوع الثانى من العلماء يبدى على العكس – احترامه للأفكار والاكتشافات الجديدة، وفى حالة نجاح دمج الاكتشاف الجديد مع النظريات القديمة يتصرفون تماماً مثل علماء النوع الأول.

أما إذا فشلت عملية الدمج فإن سلوكهم يختلف وتصبح مهمتهم الأساسية هى متابعة الاكتشاف الجديد لفترة أطول ومحاولة دمجه فى أى نظرية أخرى.

يعتبر علماء الفئة الأولى إداريين ناجحين فى حين يعد علماء الفئة الثانية مكتشفين على مستوى عال.

ويميل العلماء الإداريون بطبيعة الحال للتحفظ واتهام العلماء المكتشفين بأنهم لا يقدرون المسئولية العلمية.. ولكن الأمر يستحق فى بعض الأحيان

مخاطرة العلماء المكتشفين خاصة إذا كان متعلقاً بإعادة النظر فى إحدى الحقائق الثابتة مثل الموت.

فى المرحلة الأولى التى تقتضى التأكد من وجود الاكتشاف الجديد يكون العلماء الإداريون على حق فى خوفهم من اندفاع وتهور المكتشفين.. ولكن الإداريين قد يصبحون مصدراً لخطر إذا كان الاكتشاف من الأهمية بحيث لايمكن إغفاله.

هنا ينكر الإداريون للاكتشاف الجديد، ويحاولون خنقه وتجاهله.. وعلى الرغم من سلوكهم الخطر، فإنهم يمثلون ركيزة أساسية فى مجال العلم مثلما تحمى كرات الدم البيضاء الجسم من أى وافد جديد.

عندما يكبر الاكتشاف وتذاع أخباره بين الجماهير التى تتهافت على معرفته يصبح من الصعب تجاهله، وهكذا بدأ الحديث عن الموت أو حالة الوعى لدى المحتضرين يشد انتباه المكتشفين وعامة الناس على حد سواء.

ينتمى كينيث رينج لنوعية العلماء المكتشفين، وقد حالفه الحظ فى أن يصبح الرجل المناسب فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب، إنه أستاذ لعلم النفس بجامعة ستورز التى تقع وسط غابات الأرز الجميلة فى نيو - إنجلند.. يشبه مكتبه فى الجامعة حصناً صغيراً.. يشعر الداخل إليه أنه يمشى بين ممرات وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا»، وقد وضعت عليه لافتة «المؤسسة الدولية لدراسات ظاهرة الاقتراب من الموت» واختصارها «ايانداس».

كان كينيث رينج آنذاك (عام ١٩٨١) مديراً لهذه المؤسسة الغريبة.. وهو رجل أشقر ضخم البنية مبتسم، ملئ بالحيوية يرتدى نظارة طبية سميكة.

كان لقاؤنا الأول غريباً !

- اتبعنى إلى مكتبى.. لدى اجتماع مع الأعضاء.. بعدها سأذهب لتناول ساندوتش وحينئذ يمكننا التحدث قليلاً. هكذا بادرنى بالقول فتبعته جرياً على السلم لأعرف المكتب.

– إنه اجتماع روتيني نصف شهري للفريق التنفيذي لمؤسسة «ايانلس».. ويضحك قائلاً: دائماً نفس المشكلة.. التمويل.. إننا نتعثر لقلة الإمكانات.

– إنكم لا تنتمون إذاً إلى الجامعة ؟!

– من حسن الحظ. نحن بذلك نضمن الاستمرار ولكن لدينا أعمال كثيرة مثل تنظيم الاستفتاءات وعمل دراسات مشتركة مع دول أخرى ذات ثقافات مختلفة.. إننا نعتمد حاليا على دراسات الباحثين «أوزيس» و«هارلدسون» التي توصلا خلالها إلى معلومات هامة من مستشفيات نيودلهي والتي تعطينا رؤى متعددة للأشياء.

يستوقفني رينج أمام ماكينة القهوة قائلاً: «انتظرني. لن أغيب طويلاً».

إنها دوامة حقا! هذا الرجل يعمل بسرعة ٢٠٠ كيلو متر في الساعة! إنه يعيش كل لحظة من لحظات عمره.. لا يضيع وقتا.. بعد ربع ساعة كنا نأكل الهامبورجر في حديقة الحرم الجامعي بجوار بحيرة البط.

لم أستطع أبداً أن أنسى ذلك اليوم. كل شيء متعلق بتحقيق الجرعة الزائدة انقلب رأساً على عقب.. اكتشفت أننا في أوروبا بعيدون تماماً عن بعض الإنجازات الضخمة في أمريكا.. إن العلماء الامريكيين يعلمون الكثير عما يحدث داخل رأس المحتضر في لحظاته الأخيرة.. لديهم آلاف المعلومات المسجلة والمفهرسة والتي تم تحليلها.. ليس في مجال كيمياء المخ لأنهم غير مهتمين بالمعلومات الكيميائية، ولكن من خلال القصص والروايات الإنسانية التي خاض أصحابها تجربة الاقتراب من الموت.

مع بداية السبعينات بدأت تجربة الاقتراب من الموت «ان. دى. اى» تشغل أذهان العلماء، إنها مرحلة مر بها عدد من البشر اقتربوا فيها من حافة الموت، وعاشوا خلالها تجربة عميقة وفريدة أحدثت تغيراً جذرياً في حياتهم وأفكارهم، لكن الدراسة الفعلية لهذه التجربة من جانب العلماء لازالت في مرحلة البداية.

سألت فى استياء: لماذا لم ننتبه فى أوروبا لهذه الظاهرة منذ فترة طويلة رغم أنها تتكرر بمعدلات ضخمة؟!

يرد رينج على تساؤلى وهو يقضم قطعة من الساندوتش: هناك سببان على الأقل.. أولاً: أنه شىء خارق للعادة، وثانياً أن بعض الأشخاص الذين يمرون بهذه التجربة يخشون أن يعتبرهم الآخرون مجانين.. تخيل صديقة تحكى لك بعد إصابتها فى حادث مروع راحت بعده فى غيبوبة طويلة.. إنها بعد عودة الوعى إليها تذكر تجربة عظيمة شعرت خلالها بمتعة لا مثيل لها فى الحياة، وأحست بعدها بأنها تحب الناس جميعاً، كيف سيكون رد فعلك ؟

- سأعتقد أنها تبالغ قليلاً

- وإذا أصرت على روايتها؟

- سأقول إنها كانت فى حالة هذيان.

- وإذا حدث بالفعل تغير مفاجئ فى حياتها بمعنى أنها أصبحت أكثر تفتحاً وسعادة وأقل عصبية.

- ماذا تريدنى أن أقول؟.. سأصاب بالذهول!

- عد إلى رشدك ولا تقلق.. حتى الآن لازال رد فعل المحيطين بأصحاب تجربة الاقتراب من الموت سلبياً فى ٩٩٪ من الحالات.. الأطباء يطمئنون «ستشعر بتحسن بعد هذه الحقنة».. والأهل يؤكدون «هيا.. اهدأ يا عزيزى.. لقد مررت بوقت عصيب، والآن انتهى كل شىء ويجب نسيان هذه الفترة».

فى بعض الحالات يكون رد فعل المريض عنيفاً إزاء تصرفات من حوله فهو يؤكد أن التجربة لم تكن عصبية أو مزعجة بل ممتعة.. هنا يسيطر القلق على الجميع.. كيف يشعر المريض بالسعادة وهو فى حالة غيبوبة.. إنه مسكين لا يستطيع أن يستوعب ما حدث له.. عندئذ يفضل المريض الصمت حتى

لايتهم بالجنون. اليوم فقط انطلقت الألسنة بعد أن أبدينا استعدادنا للإنصات، والاهتمام بما يقال فى هذا الشأن.

يكمل رينج حديثه ونحن جالسون فى المقهى.. تبرق عيناه خلف النظارة السميكة وهو يقول:

– السبب الثانى فى الظهور المفاجىء لتجربة الاقتراب من الموت فى ساحة العلوم الإنسانية هو التطور المذهل فى وسائل الإنعاش، فخلال العشرين سنة الماضية ارتفعت نسبة الناجين من الموت بصورة ضخمة عن ذى قبل.

– ماذا تقصد بالناجين من الموت ؟

– إنهم المرضى الذين استطاعوا النجاة من الموت الطبى المؤقت نتيجة لتطور أساليب الإنعاش وإمكانات العناية المركزة.. هؤلاء لا يخبروننا بشىء ولكننا اكتشفنا نسبة ثابتة منهم تتراوح بين ٤٠ و ٥٠٪ مرت بتجربة «ان. دى. اى».. هذه النسبة لازالت محل بحث، فنحن لازلنا فى البداية.

– من ٤٠ إلى ٥٠٪ .. معنى هذا أن واحداً بين كل اثنين من الناجين من الموت عاش تجربة «ان. دى. اى» !

يبادر رينج بتصحيح معلوماتى:

– هذه نسبة ثابتة فى عينة الاستفتاء التى قامت عليها أبحاثنا وهناك احتمال الخطأ رغم كل الاحتياطات. ثم إن لهذه التجربة العميقة خمس مرحل لا يمر بجميعها معظم الناجين من الموت.. هناك ١٠٪ فقط بلغوا المرحلة الخامسة بمعدل واحد فقط بين كل خمسة أشخاص.

– وما هى المرحلة الخامسة ؟

ابتسم رينج فى هدوء.. إننى الصحفى رقم ١٥٠ الذى يوجه إليه هذا السؤال.. وقال:

– تعالى معى.. سأريك من المستندات مايكفى لإشباع فضولك.

وصعدنا لمكاتب مؤسسة «ايانس» حيث توجد مجموعة من الطلبة يقومون بترتيب الملفات.

– «إنهم بعض باحثينا» قال رينج مشيراً إليهم ثم أخذ يعبث داخل صندوق من الكرتون حتى أخرج مجلداً ضخماً.

– خذ.. إنه لك.. وسأصعد لأبحث لك عن أوراق أخرى.

إنه كتاب ضخم بعنوان «الحياة لحظة الموت» من تأليف ك. رينج. تصفحت الكتاب.. عجباً! إنه ملىء بالرسوم البيانية والجداول ووقعت عيناى على إحدى الفقرات:

هل الطريقة التى نقترب بها من الموت تعد ذات أهمية؟

إن من الدوافع الرئيسية وراء هذا البحث معرفة مدى استقلال التجربة ذاتها عن الظروف التى دفعت بالمريض إلى حافة الموت..

عاد رينج حاملاً عدداً من الكتيبات ودفع بهم إلى قائلاً:

– هذه بعض نماذج من مجلة (فيتال ساينز).

– وهذا هو العدد الثانى من مجلتنا « أنا بيوزيس ». المخصصة للباحثين.. هذه الكتيبات هى وسيلتنا لشرح وتبسيط التجربة.

أعطانى رينج عدة نسخ ومقتطفات من جرائد ثم ودعنى وهو يعتذر لتأخره عن محاضرته وذهب يقفز السلم كل ثلاث درجات معاً.

عدت إلى الفندق وبدأت أقرأ بنهم الأوراق التى حصلت عليها.. هذه النسخ المصورة كانت مثل طبق من المشهيات ملىء بالمعلومات المتنوعة.. لاحظت أن عشرات من الباحثين – علماء نفسيون وأطباء وجراحون من مختلف التخصصات وبعض علماء الأحياء والفلسفة – يشتركون فى تحليل ظاهرة «ان. دى. اى».

هؤلاء الباحثون مازالوا فى مرحلة جمع المعلومات لأن كثيراً من الأسئلة تقف حائلاً أمام الوصول إلى نتائج محددة:

ماذا تعنى هذه الرؤى ؟ ولماذا تظهر فجأة فى الوعى وبشكل جماعى ؟...

فى هذه الدوامة من المعلومات شعرت أننى محظوظ للقائى بالبروفسير رينج.. إنه أحد المنسقين الأساسيين لهذه الأبحاث.. لا يتوقف عن السفر وإلقاء المحاضرات.. تارة لطلبة الطب فى شيكاغو، وتارة أخرى فى مدرسة التمريض بنيوهافن، إن الممرضات يلعبن دوراً هامًّا فى هذا المجال اكتشفته فيما بعد عند ذهابى لقضاء ثلاثة أيام فى «نيراسكا» حيث أُخبر رينج بوجود حالة «إن. دى. اى» جديدة وغريبة.

ياللعجب! إنهم يتعاملون مع حالات «إن. دى. اى» كما لو كانت مخلوقات قادمة من الفضاء وكأن كين رينج يلعب دور تريفو فى فيلم ستيفن سبيلبرج «لقاء مع الجنس الثالث».

انتابتنى نوبة من الضحك فى غرفتى بالفندق وأنا أتذكر أحداث هذا الفيلم.. آلاف الأشخاص فى جميع بقاع الأرض يحلمون نفس الحلم.. حلم عجيب لا يخلو من عنصرين أساسيين: لحن موسيقى من خمس نغمات ورؤية جبل مسطح على شكل هضبة مكسيكية! وحاول هؤلاء الأشخاص كل بطريقته الخاصة وصف هذا الجبل إما بالرسم أو النحت، أو تشكيل قالب مماثل له.

اجتاحت هذه الظاهرة المجتمع العلمى الذى بدأ محاصراً بضرورة دراستها بناءً على طلب السلطات العامة، وتكونت بعثة عالمية على رأسها عالم فرنسى (جسد دوره الممثل تريفو) ظلت تنتقل فى أنحاء الأرض بحثاً عن هؤلاء الحالمين حتى اكتشفت سر الجبل الشهير.. إنه حلم تم توصيله وبث أفكاره لأهل الأرض عن طريق الكائنات القادمة من الفضاء.

كان الجبل مكان اللقاء واللحن هو كلمة السر، وفى نهاية الفيلم التقى الحالمون بهذه الكائنات الفضائية العظيمة والطيبة.

قلت لنفسى إن رينج يشبه العالم الذى جسَّد دوره الممثل تريفو، أما الحلم فهو الرؤية المتشابهة عند الاقتراب من حافة الموت.. لكن ما هى الرسالة المراد توصيلها لهؤلاء الناجين من الموت؟ ومن الذى يرسلها؟ هل هم البشر أنفسهم؟!

شدتنى القراءة حتى وقت متأخر من الليل.. هناك حوالى ١٠٪ من جميع الأبحاث تشير إلى نفس النتائج.. حوالى نصف الأشخاص الذين تم سؤالهم بعد واقعة الموت الطبى، أكدوا أنهم (خرجوا من أجسادهم) فى اللحظة الحاسمة.

استغرقت بعد ذلك فى قراءة كتاب رينج «الحياة لحظة الموت» لأتعرف على المراحل الخمس التى تحدث عنها فى هذه التجربة. هناك حوالى ٥٠٪ على الأقل من الناجين الذين سُئلوا مروا بالمرحلة **الأولى**، وشعروا بأنهم يسبحون فى فضاء غريب.. فى حالة انعدام وزن يليه إحساس رائع بالهدوء والراحة لا مثيل له فى الحياة العادية.. إنهم يؤكدون جمال ومتعة هذه التجربة التى سيذكرونها دوماً حتى لو مرت عليها عشرون سنة.

إنه أمر غريب أن يشعر هؤلاء أن أفضل لحظات حياتهم هى التى اقتربوا فيها من حافة الموت. اعترف أن الشك ملأ قلبى حتى أننى كنت أتوقف عن القراءة كل خمسة دقائق وأفرك عينى لأتأكد من أننى يقظ تماماً ولست بحالم. إننى فعلاً فى الولايات المتحدة فى مهمة صحفية ممسكاً بكتاب علمى.

يصل ٣٧٪ من أصحاب التجربة إلى المرحلة **الثانية** التى يرون خلالها أجسادهم على بعد عدة أمتار منهم، ويشعرون بغرابة وضعهم.. إنهم بلاشك قد غادروا عالم الأحياء.. لكن ذلك لا يمنعهم من تأمل فريق الأطباء والممرضات الملتفين حول الجثمان يحاولون إعادة الحياة إليه، ويسرد بالفعل الذين خاضوا هذه المرحلة كل ما حدث لهم أثناء موتهم الظاهرى.

ويؤكد ٢٣٪ منهم أنهم بلغوا المرحلة **الثالثة** أو مرحلة «النفق».. حيث جذبهم فراغ هائل «يزيد ظلامه تدريجيا» وضاعف ذلك من إحساسهم بالراحة والسعادة بدرجة كبيرة.

و اجتاز ١٦٪ فقط المرحلة الرابعة التي اتسمت برؤية طاقة كبرى من النور بيضاء ذهبية شديدة الابهار والرقة في آن واحد.. إنه نور يستحيل وصفه يخرج منه إشعاع حُب!.

في النهاية يخترق ١٠٪ فقط من الناجين من الموت هذا النور ليبلغوا المرحلة الخامسة.. هنا تتعدد الروايات.. البعض يتحدث عن «موسيقى سماوية» والبعض الآخر يصف مُدناً من النور أو الكريستال وآخرون يذكرون أنهم شعروا بلذة غامرة وهم يذوبون في نور هائل.

هناك دائما عنصران ثابتان في هذه الروايات.. طاقة الحب الشامل أو اللانهائي، والشعور بأنهم أثناء هذه المرحلة قد وجدوا إجابات لجميع أسئلتهم، فلم يكن ذهنهم أبداً بمثل هذا الصفاء أو القدرة على التركيز.

لم أستطع النوم وبدأت بعض الخيالات تتراءى لي، فأخذت حماماً دافئاً ثم نزلت لأحتسي فنجاناً من القهوة في كافتيريا الفندق حاملاً معي كتاب رينج لأستكمل قراءته في جو أكثر حيوية.. ورغم الأصوات والأضواء من حولي إلا أنني ظللت تحت رحمة الكتاب طوال الليل.

في الصباح التالي، ذهبت وأنا شبه نائم للقاء رينج في الجامعة حيث كان يتحدث مع بعض طلابه، كان لدى ثلاثة آلاف وخمسمائة سؤال على الأقل أريد طرحهم عليه، وكان أكثرهم إلحاحاً هو أين أستطيع مقابلة بعض أصحاب الرؤى الغريبة؟

قال رينج : إنهم متواجدون في كل مكان! ونحن لا نحتكر تحليل هذه الظاهرة .. إن رغبة «إيانديس» الوحيدة هي أن يهتم المجتمع العلمي الدولي بتلك الظاهرة.. فليمارس كل عالم أبحاثه ثم نتبادل المعلومات ونقارن النظريات.

علمت من إحدى الطالبات أن جون أوديت أحد مؤسسي هذه الجمعية، يطوف حاليا أوروبا لبحث سبل التعاون مع بعض الدول..، وقد وجد بالفعل بعض الباحثين في إسكندينافيا وإنجلترا وألمانيا (دول ذات غالبية من

البروتستانت). إنه عالم اجتماع ماركسى، وسيمر حتماً بباريس قبل عودته من أوروبا.

لقد بدا لى كل شىء منظماً فجأة.. ولكن سؤالاً هاماً كان يلح علىَّ دائماً ولم أجد بُدًّا من توجيهه لرينج:

– ألم تفكر أبداً بأن أبحاثك هذه قد تدفع بعض الأشخاص إلى الانتحار ؟

– إنك تمزح ولا شك.. أن جميع من اقتربوا من حافة الموت عادوا أكثر حبًا للحياة وإقبالاً عليها.. إنهم ينقلون لمن حولهم الإحساس بأن الحياة فرصة ذهبية لابد من استغلالها على أحسن وجه، وأن محاولات الانتحار قد تضيع هذه الفرصة الفريدة. إنك مخطئ بلاشك.. فحديث الناجين من الموت عن طاقة الحب الهائلة هى رسالة شعورية لا تنم عن جانب مَرَضى.. إننى أعتقد أن هذه الظاهرة قد تؤدى – على العكس – إلى تقليل مُعَدَّلات الانتحار.

إنها رحلة متعددة الإيجابيات، فالعائدون يشعرون بأنهم أقوى وأكثر نشاطاً وحباً للحياة.

– وهل يدوم هذا الشعور للأبد ؟

– إنه عادة يستمر ولكن بالطبع لا توجد حالتان متشابهتان تماماً.

سألت رينج عما إذا كان كتابه يحقق مبيعات ضخمة.. رد قائلاً: إنه يأمل فى ذلك، ولكنه لا يعلم حتى الآن. وابتسمت فى خبث قائلاً:

إن الكتاب سيحقق شهرة واسعة بلاشك طالما أنه يؤكد الخلود وحياة الآخرة.

– إن اهتمام العامة بأبحاثنا تتركز حول الأمل فى إثبات الحياة الثانية بعد الموت.. لكن باحثينا لا يضعون ذلك فى اعتبارهم أثناء دراسة هذه الظاهرة.

وبدت معالم الغضب على البروفيسور وهو يكمل:

– إننا بالطبع لا نتجاهل، أو ننكر الظواهر التى تؤكد استمرارية الحياة الأخرى، ومن حسن الحظ أن أصحاب تجربة الإقتراب من الموت يُعَدون من الشواهد الهامة للحياة الثانية بحيث نتجنب الوقوع فى فخ البحث عن إجابات لأسئلة تافهة، هناك أحداث نهتم بها وندرسها.. وبعد ذلك فليستنتج كل شخص ما يستطيع. ثم نظر إلى قائلاً فى صوت أقل حدة:

– إليزابيث كوبلر – روس هى الوحيدة التى استطاعت أن تتخطى هذه المرحلة بأن فصلت الجزء العلمى عن عالم الروحانيات.. لقد خاضت فى فى سبيل ذلك عدة مخاطر ولكن ذلك لا يقلل من شأنها كامرأة عظيمة.

إنه يعرفها تماماً.. وتذكرت تلميحات رونالد سيجل عن هذه المرأة فسألت:

– وكيف ترى نوعية التجارب التى تقوم بها ؟

يضحك رينج قائلاً:

– نوعية التجارب؟! ولكنها هى التى فتحت أمامنا الطريق على مصراعيه.. لقد سبقتنا جميعاً بمراحل.

اليزابيث كوبلر – روس أو «إيكر» هذه المرأة الصغيرة التى جاءت من جبال سويسرا، إن هذا الكتاب سيبدأ مع قصتها.. فكل ماسبق (ومعذرة عزيزى القارئ) كان نوعاً من التمهيد.

إن قصة إليزابيث تحمل بين طياتها مفتاح النبع الأسود أو تجربة الموت التى أعيد اكتشافها على أيدى علمائنا المعاصرين.. إنها دليل على ميلاد حضارة جديدة.

طاقة النور والحب اللانهائى

مراحل الموت الخمسة !

ولدت إليزابيث فى ٨ يوليو ١٩٢٦ بالقرب من زيورخ.. وكانت كبرى ثلاث فتيات توائم رزق بهن الوالدان بعد سبع سنوات من إنجاب ابنهما الوحيد. لعبت ظروف ميلاد إليزابيث دوراً هامًّا فى حياتها خاصة وأن الأب مستر كوبلر كان يفضِّل صغرى البنات وكانت الثانية أثيرة لدى والدتها فنشأت الكبرى وحيدة.

فى سن الرابعة، أنشأت إليزابيث عيادتها الأولى للحيوانات فى غرفة ضيقة بمنزلهم الصغير.. وظلت لسنوات طويلة تمارس وحدها دور الطبيب البيطرى فى رعاية القطط والأرانب والقنافذ والعصافير. أما أختاها فكانت هوايتهما اللعب بالعرائس.

عندما بلغت إليزابيث الحادية عشرة من عمرها سُئلت فى المدرسة عن آمالها فى المستقبل.. فقالت: أريد أن أصبح باحثة لأكتشف المناطق المجهولة بالنسبة للإنسان.. أريد أن أدرس طبيعة الحياة وطبيعة الإنسان والحيوان والنبات وأهم من ذلك كله أود أن أصبح طبيبة.. إن دراسة الطب أشبه بحلم مستحيل ولكنه أقصى آمالى.

حلم مستحيل! لقد أفصحت مرة عن هذه الرغبة أمام أهلها فكان رد والدها الرفض التام. لأن إمكانياته كرجل يعمل فى مجال التأمين بزيورخ لا تؤهله لتحمل نفقات تعليم ثلاث فتيات.

كانت الأخت الثانية بين التوائم هى الأكثر ضعفاً وذكاءً فى نفس الوقت.. فوقع عليها الاختيار أن تكمل وحدها الدراسة الثانوية على أن تصبح أختاها

من ربات البيوت. لم يكن أحد يستطيع أن يناقش قرارات الأب فى عائلة كوبر. لذلك لم تتحدث إليزابيث مرة أخرى فى هذا الموضوع واكتفت بأحلامها.

ولكن ما كاد الموضوع يأخذ شكلاً جديًا عندما أخبرها والدها ذات ليلة وكانت قد بلغت السادسة عشرة من عمرها بأن تستعد لتعمل معه كسكرتيرة ابتداءً من الأسبوع التالى حتى أيقنت ضرورة الثبات على موقفها.. وكانت الإجابة القاطعة: لا.

عندما كانت إليزابيث فى السادسة عشرة فى عام ١٩٤٢ كانت سويسرا فى ذلك الوقت أشبه بزورق صغير يتأرجح وسط عاصفة هوجاء. كان النازيون قد نشروا الخراب والدمار فى أوروبا بينما استقر السويسريون قريرى العين فى مصانع الشيكولاته الشهيرة، أما سكان الحدود الذين كانوا على اتصال بالعالم الخارجى فكانت سويسرا بالنسبة لهم نافذة تطل على الجحيم.

كان الراديو هو وسيلة الإعلام الوحيدة والهامة خاصة بالنسبة لمن يجيدون اللغة الألمانية ويستطيعون بالتالى متابعة خطب هتلر. وعندما علمت إليزابيث فى أول سبتمبر ١٩٣٩ أن الألمان غزوا بولندا، قطعت على نفسها عهداً بتقديم العون للشعب البولندى قدر استطاعتها.

وقد ارتكبت إليزابيث إثماً عظيماً برفضها عمل السكرتارية مع والدها.. فكان عقابها الطرد بغير رجعة، لذا لم تجد بُداً من العمل فى خدمة بعض القادمين من بحيرة ليمان ممن يتحدثون الفرنسية، ولأنها عانت فى ظل هذه العائلة.. فقد كرهت اللغة الفرنسية ولم تحاول إتقانها.

وانتهت القصة الحزينة بفرار إليزابيث من العائلة الشهيرة وعودتها لزيورخ حيث دفعها حب العلم إلى الحصول على عمل كمساعدة فى معمل اختبار، ولم تتردد إليزابيث فى استخدام الوسائل البسيطة لإشباع رغبتها العلمية حتى لو قضت قروناً طويلة فى تحليل اختبارات البول.

وحصلت بسرعة على ثقة الدكتور «زندر» طبيب العيون الشهير.. فنقلها للعمل معه.. فكانت تستقبل مرضاه وترعاهم ومعظمهم أطفال صغار مهددون بفقدان البصر. واستطاعت إليزابيث فى وقت قصير أن تكتسب ثقة المرضى مثلما اكتسبت من قبل ثقة الطبيب الكبير.. كانوا يُسرُّون إليها بشكواهم وكانت أكثر نضجاً ممن فى سنها فكانت تهتم بما يحدث داخل رأس الطفل الذى يصاب فجأة بالعمى وما يدور فى خلد والديه فاكتشفت خلال بضعة شهور – ربما بمحض الصدفة – خمس مراحل مظلمة يمر بها هؤلاء المرضى وعائلاتهم فى الطريق المسدود نحو الإصابة بالعمى.

تبدأ المرحلة الأولى بصدمة شديدة وكأنها عصا حديدية تهوى على الرأس منذرة: إنك ستفقد إحدى عينيك.. ويكون رد الفعل الطبيعى والفورى هو الرفض.

إن هذا الطبيب مجنون ولابد من استشارة غيره!.. إننى لا أريد أن أفقد عينى!.

فى المرحلة الثانية يؤكد الطبيب الثانى تشخيص زميله ويطالب بجراحة سريعة.. هنا تتصاعد نسبة الأدرينالين فى الدم مسببة موجة من الغضب العارم.. ويحاول المريض أو أحد من أهله البحث عن شخص يكون موضع الاتهام.. إنها الجدة أو العمة أو الممرضة، التى كانت ترعى الطفل.. وقد يكون الطبيب الأول الذى أبطأ فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية عين الطفل.. نعم إنه المخطئ!

وترى إليزابيث عائلات كاملة فى حالة ذعر.. وتفشل نظراتها الهادئة ومحاولة مساعدتهم فى التخفيف عنهم بل إن ذلك يستثيرهم بصورة أكبر فى بعض الأحيان.

فى المرحلة الثالثة تبدأ عملية **المساومة**..! إن إبصار عين واحدة خير من العمى الكلى.. ستظل الأخرى سليمة.. أليس كذلك يادكتور؟! وتستمر المساومة عدة أشهر حتى ينفذ قضاء الله ويصبح الصغير أعمى.

عندئذ يصبح **اليأس** السمة الغالبة للمرحلة الرابعة.. تتراخى الأعصاب وتخرس الألسنة.. ولا تجد إليزابيث ما تقوله لهؤلاء البائسين.. لقد دمرهم اليأس تماماً.

وأخيراً قد تحدث المعجزة فى المرحلة الخامسة.. معجزة تقبل الواقع.. إن حالة الصفاء والسكون التى تغلب على فاقد البصر تضفى نوعاً من الهدوء **والاستسلام للقدر** على من حوله.. قد يكون الجو المحيط به حزيناً ولكنه جميل أشبه بصفاء الجو بعد المطر.. وتكتشف إليزابيث بعد عودة المريض وأهله للقاء دكتور «زندر» بعد شهور طويلة أنها تعلمت شيئاً خاصًّا من حالتهم النفسية.

وتشعر إليزابيث رغم حاسة البحث والاكتشاف داخلها أنها لاتزال بعيدة عن حلم حياتها فى أن تساعد وتعالج وتصبح طبيبة.. إنها لازالت حتى عام ١٩٤٥ مجرد مساعدة فى معمل بمستشفى كبير فى زيورخ تحت رئاسة طبيب يهودى بولندى يدعى (ويتز). كانت تتحدث معه عن بولندا ويحكى لها القصص المأساوية فأخبرته بالعهد الذى قطعته على نفسها لمساعدة الشعب البولندى، وكان دكتور ويتز يشملها برعايته لصغر سنها وحماسها الشديد.

وفى انتظار الفرصة للوفاء بهذا العهد، كانت إليزابيث تهتم باللاجئين وتقضى معظم وقتها فى تنظيف أجسادهم بالمطهرات ومحاولة إيجاد ملابس وغذاء لهم.. وكان ويتز يغمض عينيه عن تغيب إليزابيث شبه المستمر عن المعمل تقديراً لحسن نواياها.

عندما أنزل الأمريكيون قواتهم فرت جموع هائلة من أرض المعركة وتزايد طوفان اللاجئين إلى سويسرا. فوجدت إليزابيث نفسها مسئولة عن جناح كامل بالمستشفى.. وتضاعف نشاطها حتى لم تعد تعرف للنوم سبيلاً.

أخيراً هُزم النازيُّون.. وحان الوقت لتفى إليزابيث بوعدها غير أنه لا توجد وسيلة لبلوغ بولندا قبل الخريف. فى تلك الفترة وخلال صيف عام ١٩٤٥ كانت المجلات الكبرى هى الوسيلة الوحيدة للتعرف على ويلات الحرب فى أوروبا من خلال صور بشعة للدمار والخراب وزحام الجثث ومعسكرات الاعتقال.

هنا تمتد جذور الكتاب الحديث عن الموت.. فى ذلك المكان الذى ينتمى إلى العصور المظلمة.

ولكن كيف الوصول إلى بولندا؟ إن والد إليزابيث هو الذى وضعها على أول الطريق رغماً عنه، إنه يعشق الجبال والتزحلق على الجليد وهى الوحيدة فى عائلته الصغيرة التى تقاسمه هذه الهواية. لقد جمعتهما هذه الهواية ثانية فتصالحا، وفى أواخر أيام صيف ١٩٤٥ طلب مستر كوبلر من ابنته إليزابيث أن تساعد بعض عملائه من أعضاء منظمة «الخدمة التطوعية العالمية للسلام» التى تكونت عقب الحرب العالمية الأولى فى أوروبا وأمريكا.. إنها ترفع شعار (أطباء بلا حدود) وتضم أيضاً البنائين والخبازين وبسطاء الحرفيين، وقد زادت فاعلية وتأثير هذه المنظمة بعد مشاركتها فى إعادة تعمير أوروبا بعد انتهاء الحرب.

تحدث عملاء مستر كوبلر من أعضاء المنظمة معه عن خطط أعمالهم القادمة فى «إيكورسى» بفرنسا على الجانب الآخر من الحدود السويسرية.. إنهم يريدون تعمير هذه المدينة التى دُمرت وسُلبت على أيدى النازيين. وقد طلبت إليزابيث أن تتبع دعاة السلام فى رحلتهم إلى فرنسا فقبلوا أن تعمل معهم كطاهية.

هناك انتابت إليزابيث حالة من الذعر عندما علمت باستغلال الأسرى الألمان في إزالة الألغام التى زرعها الجيش الألمانى فى المدينة.. فأثارت ثائرة الأسرى الأجانب الذين سرعان ما استجابوا لتحريضها ضد سكان «إيكورسى»وساعدتهم إليزابيث بكافة الوسائل لأنها اكتشفت أن العدالة سرعان ما تهجر معسكر المنتصرين حينما يتأكدون من نصرهم.

انتقلت إليزابيث بعد ذلك إلى بلجيكا حيث التقت بشاب أمريكى بروتستانتى كان فى طريقه إلى بولندا للالتحاق بمعسكر اللاجئين فى «لوسيما» وداخلها شعور مؤكد أن هذا الفتى يستطيع مساعدتها وقد وعدها بذلك فور وصوله إلى وارسو ولكن كيف يصبحان على اتصال عبر أوروبا التى لحقها الدمار.

وفجأة اختفى الشاب !

مرة الأيام ثقيلة حتى عرضت عليها منظمة «الخدمة التطوعية العالمية للسلام» العمل كمترجمة لبعض المتطوعين الألمان فى سويسرا.. وقد انزعجت إليزابيث من هذا العرض لأنها تريد مساعدة البولنديين وليس العمل كمرشدة للألمان.. هؤلاء المتكبرين.. هل استعادوا توازنهم بهذه السرعة لتعمير أوروبا؟

وتركت الأمر لإحساسها الفطرى. فسافرت إلى سويسرا.. وتأثرت أثناء عبورها لألمانيا الشرقية برؤية الدمار والجوع يسيطر على تلك الدولة، ولكنها صدمت لوجود النقيض فى سويسرا التى كانت تنعم بالرخاء والرفاهية.. حتى إن المعسكر الترفيهى لمنظمة السلام كان زاخراً بمختلف أنواع الأطعمة.

فى ربيع عام ١٩٤٦، جاءها تليفون من وارسو.. لقد نفّذ الأمريكى وعده وطالبها بأن تحضر فوراً إلى بولندا حيث ينقص كل شىء.. فهم يحتاجون لمزيد من المتطوعين، وسافرت إليزابيث بالباخرة إلى «جادنسك» على نفقة المنظمة حاملة معها بطانية، وبعض الحقن والأدوية المضادة للجراثيم.

كانت إليزابيث الفتاة الأولى التى تغامر بالسفر من جادنسك إلى وارسو جاثمة فوق إحدى القطارات.

كان وصولها لوارسو بمثابة رمز لتحقيق حلمها القديم.. استقبلها اثنان من الأمريكيين وصحباها فى سيارة جيب وسط مشاهد بشعة للدمار والخراب إلى قرية «لوسيما» بالقرب من «دبلن» على بعد خطوتين من الحدود الروسية، هنا شعرت إليزابيث بشيء غريب يغلف المكان.. شيء مجنون لا يمكن وصفه، إنها لا تعرف بعد حجم التجربة الضخمة التى تقبل عليها.. فقد بلغت المنطقة المرحلة الخامسة منذ زمن طويل !

كانت الدبابات قد دمرت القرية تماماً ولا يوجد طبيب واحد فى نطاق عدة كيلومترات.. حشود اللاجئين تتوافد من كل مكان، والناجون من معسكرات الاعتقال فى حالة يرثى لها.. ووباء التيفود ينتشر بين أهل القرية الذين يعانون من الهزال والجوع.

فى معسكر المنظمة كانت إليزابيث تمارس دورها كطاهية.. إنها مهمة مستحيلة.. فهى لا تستطيع توفير ما يكفى من طعام لفريق المتطوعين الأمريكيين والسويسريين والسويديين الذين اعتادوا أن يأكلوا بشراهة !

حدث أن قدمت إلى القرية فتاتان بولنديتان تدرسان الطب وأرادتا الاستعانة بممرضة وعندما علمتا بوجود الفتاة السويسرية لدى الأمريكيين، وأنها عملت ثلاث سنوات فى أحد المستشفيات، وقع الاختيار عليها وقبلت إليزابيث العرض وسرعان ما تعلمت استخدام المشرط.

لم يكن لدى الطبيبتين أى أدوية أو حقن غير تلك التى أحضرتها إليزابيث معها من سويسرا فلجأتا إلى التداوى بالأعشاب.. كان المرضى يموتون هنا وهناك بصورة صدمت الفتاة السويسرية.

وتعود الذاكرة بإليزابيث إلى الوراء.. لقد نشأت فى مجتمع تقليدى، فى القرية حيث كان الناس يموتون ببطء دون أن يستطيع أحد علاجهم.. ففى السادسة من عمرها سقط أحد الفلاحين من جيرانهم من فوق شجرة وكسر ظهره وظل الرجل يحتضر لمدة يومين.

إن مشاهد الموت ترعبها.. ورؤية البولنديين الذين ينتظرون الموت تصيبها بالذهول رغم محاولتها هى وزميلتاها إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وفى خضم النماذج التى رأتها، طرحت بعض الحالات ثلاثة أسئلة هامة فى ذهن إليزابيث.

الحالة الأولى تدعى ريتا.. فتاة بولندية شقراء فى العشرين من عمرها تعانى من سرطان الدم.. إنها تتمتع بشفافية غريبة وجمال هادئ رغم علمها بقرب نهايتها.. تموت بشجاعة.. مثل الفلاحين فى جبال الألب.

ينطق وجهها بالبهجة رغم معاناتها.. ويتبادر إلى ذهن إليزابيث سؤال هام: **ترى ما هو المفهوم الحقيقى للبهجة ؟**

الحالة الثانية تدعى مدام إكس.. فى إحدى ليالى صيف عام ١٩٤٦ سمعت إليزابيث أثناء نومها بكاء طفل صغير.. عندما قامت لاستطلاع الأمر وجدت امرأة تفترش الأرض وتحمل طفلاً فى أحضانها..

وبلغتها البولندية البسيطة أمكنها سؤال المرأة عن حاجتها فأخبرتها أنها قدمت سيراً على الأقدام من قرية تبعد أربعين كيلومتراً لأن طفلها ذا الأعوام الثلاثة يعانى من مرض التيفود الذى سبق أن أودى بحياة أطفالها السابقين وعددهم اثنا عشر طفلاً ماتوا جميعاً فى معسكر الاعتقال فى «مايدانك».

قامت إليزابيث وقد اقشعر بدنها تحاول أن تهدئ من روع المرأة، وتفهمها أنها لا تستطيع عمل شىء من أجلها، لقد مات عشرات الأطفال بالتيفود فى القرية لأن المستشفى الميدانى الذى يضمها هى وزميلتاها لا يملك جراما واحدا من العقار اللازم. يا للمأساة! إن طفلها الثالث عشر والأخير سيكون مصيره الموت أيضا.

ظلت المرأة جالسة بجوار النار تردد دون ملل أو كلل: «من فضلك يا دكتورة.. انقذى طفلى». فى الصباح ارتدت إليزابيث معطفها وصحبت المرأة سيراً على الأقدام لمسافة ثلاثين كيلومتراً حتى بلغتا مستشفى مدينة «دبلن». كان المستشفى مزدحماً.. لكن إليزابث جذبت الطبيب الشاب من ذراعه بعد

أن حاول طردهما ونبهته إلى أن طريقة البرود وعدم الاهتمام التى يتعامل بها الأطباء البولنديون مع المرضى ستعطى انطباعاً سيئاً عنهم و... قاطعها الطبيب فجأة وأخذ منها الطفل على أن تتركه تماماً وألا تعود قبل ثلاثة أسابيع!.

فى تلك اللحظة، شعرت المرأتان أن الطفل سيموت لا محالة ولكن لا مفر من الإذعان لتعليمات الطبيب.

عادت المرأتان إلى المعسكر.. وأصبحت مدام «إكس» مساعدة لإليزابيث.. تحاول أن تبذل كل ما فى وسعها دون أن تنطق بحرف.. وفى الليلة الحادية والعشرين اختفت الأم دون سابق إنذار واعتقدت الفتاة السويسرية أنها اختفت من حياتها للأبد.. ولكن ذات صباح وجدت إليزابيث مع ملابسها لفافة صغيرة.. إنه منديل ملىء بالرمال ومعه ورقة صغيرة كُتب عليها «حفنة تراب من أرض بولندا المباركة» من مدام «إكس» التى أنقذت آخر أطفالها الثلاثة عشر.

أثارت مدام «إكس» سؤالاً ثانيا شغل ذهن إليزابيث: **ما هو الأمل ؟**

كانت المرأة الثالثة تدعى جولدا. لقد مر أحد عشر شهراً منذ قدوم إليزابيث إلى بولندا وبدأ شىء ما يؤرقها ويدفعها للعودة.. ولكنها كانت تريد أن تشهد مسرح الدمار الحقيقى فى بولندا قبل الرحيل، فذهبت إلى معتقل «مايدانك» بسيارة جيب وهناك وجدت أفواجاً من الناس جاءت مثلها لرؤية هذا المكان.. نوافذ متهالكة.. أسلاك شائكة.. رائحة نفاذة توحى باحتراق شىء ما.. وبعيدا تظهر الأحزان.. داخل تلك الأكواخ الحقيرة المصنوعة من الخشب.

دفع الفضول إليزابيث لدخول أحد هذه الأكواخ.. يا للعجب! إن الجدران غطتها رسومات الأطفال.. أشكال فراشات.. هذه الرسومات توحى لها بشىء.. إن الفراشة ستكون رمزاً لها. عندئذ شعرت بأن أحداً يراقبها فعادت أدراجها، وعند باب الكوخ، رأت امرأة شابة شديدة النحافة جذبتها نظراتها الصامتة.. إنها تدعى جولدا من عائلة يهودية هلكت جميعها فى هذا المعسكر.. ونجت

هي وحدها بمعجزة، نظراتها الصامتة تشع هدوءاً أبديًا.. تذكر إليزابيث بالأشخاص الذين بلغوا المرحلة الخامسة.. هل تحمل نظراتها استنكاراً للموت؟.. ربما الغضب أو المساومة على حياتها.. وقد يكون اليأس.

لابد أن الذين نجوا من الموت فى هذا المعسكر قد مروا بجميع المراحل بأدق تفاصيلها وصورها.

جاءت جولدا لزيارة المكان مع بعض الأقارب، وغداً تغادره متجهة إلى ألمانيا.

تعجبت إليزابيث لعزم المرأة اليهودية على محاربة الألم والمرارة وربما الجنون من خلال معالجتها لبعض الجنود الألمان فى أحد مستشفيات «هانوفر»، ماذا يدور فى ذهن هذه السيدة لتتصرف بهذا الشكل؟.. ماذا يحدث داخل معتقلات الجحيم هذه ليخرج منها أشخاص من أمثال جولدا، إن هذه المرأة تطرح أمام إليزابيث سؤالاً ثالثا: ما هى الرحمة؟

وتعددت رحلات إليزابيث حتى بلغت روسيا.. وأخيراً بمساعدة بعض الرهبان البولنديين والطيارين الأمريكيين استطاعت الوصول إلى ألمانيا ولكن فى شبه حالة احتضار.. فقد أصيبت بميكروب التيفود.

إنها هنا وحدها فى غابة ألمانية فاقدة الوعى تعانى من الحمى.. وجدها أحد المارة فنقلها إلى المستشفى.. وظلت أسبوعاً كاملاً بين الحياة والموت.

وظنها المرضى الألمان بالمستشفى بولندية.. فكرهوها وأداروا لها ظهورهم حتى أنهم رفضوا إعطاءها الماء لتشرب.. وبعد خروجها أدركوا خطأهم واعتذروا، آه.. لو علموا أنها سويسرية.. لأصبحت مدللة بينهم، ولكن فزع إليزابيث من معاملتهم فى البداية جعلها تنجو بنفسها فور أن استطاعت الوقوف على قدميها، فقررت العودة إلى زيورخ بين أهلها وقد أصبحت أشبه بهيكل عظمى من شدة النحافة.

قامت إليزابيث بعدة رحلات عبر أوروبا التى لحقها الدمار بعد الحرب العالمية الثانية.. ثم عادت لوظيفتها كمساعدة فى معمل الرمد فى المستشفى الكبير فى زيورخ، وقد شجعها رئيسها الجديد على إنهاء دراستها الثانوية.. وخلال عام واحد استطاعت إليزابيث أن تنهى مقررات ثلاث سنوات، كانت تكافح وحدها.. تعمل صباحًا فى المستشفى وتسهر ليلاً تذاكر دروسها فى مخزن استأجرته من الباطن من صديقة لها تعمل عازفة موسيقى. وفى صيف ١٩٤٩ حصلت إليزابيث على شهادتها الثانوية. والتحقت فى العام التالى بكلية الطب.

سبع سنوات من الدراسة المنهكة تفرغت خلالها إليزابيث للطب، وكانت ترفه عن نفسها بإقامة بعض الأمسيات الموسيقية مع صديقتها العازفة فى شقتهما المتواضعة.

ومع إليزابيث تصبح الأمور دائمًا ذات طبيعة خاصة، فقد حولت شقتها إلى عيادة تلتقى فيها مع طلبة الطب وبعض الطلبة المرضى فى جلسات مجانية.

كان هناك العديد من الأمريكيين بين طلبة كلية الطب ولكن واحداً فقط لفت نظر إليزابيث، شاب أسمر يهودى ضخم الجثة ذو عيون سوداء وضعته الصدفة فى نفس فريقهافى دروس التشريح.. وفى الفريق الثنائى علمها «امانويل روس» – ويطلق عليه الزملاء «مانى» – كيفية التشريح.. فتوطدت الصلة بينهما.

ما هو الموت ؟!

اتخذت إليزابيث – بعد أن أصبحت طبيبة – الدكتور «ألبيرشويتزر» فى أفريقيا مثلها الأعلى، كانت تشعر بميل غريب نحو الهند بعد ارتباطها بذلك الطفل الهندى الذى جاء إلى مستشفى زيورخ للعلاج من حالة تسمم بعد أن أكل فأر إحدى عينيه.

وقد ظل الصغير الذى بات مذعورًا منذ الحادثة مدة أسبوع كامل خائر القوى بسبب إضرابه عن الطعام.. إنه ينتحر ببطء.. وفكرت إليزابيث أن تأتى ببعض الطلبة الهنود من أصدقائها فى محاولة للتخفيف عنه وإقناعه بتناول الطعام، رحب الهنود بالفكرة وبالفعل استجاب لهم الطفل عندما أحضروا له الأكلة الهندية الشهيرة (الأرز بالكارى).

شفى الطفل وذاعت قصته حتى بلغت مدينة برن السويسرية، وعندما علم الزعيم الهندى نهرو وابنته أنديرا غاندى بالقصة أثناء زيارتهم للمدينة، قاما بدعوة إليزابيث وأصدقائها الطلبة الهنود للقائهم بالسفارة، وقالت أنديرا للفتاة السويسرية «تعالى إلى الهند، فنحن نحتاج لأمثالك».

فكرت إليزابيث فى الأمر، فهى تحلم بالطبيعة والمساحات الواسعة وتتخيل نفسها فى مستشفى للجذام تساعد المرضى التعساء.. وتحدثت مع أمانويل روس، الذى تود أن تكمل معه مشوار حياتها ولكنه رفض بإصرار.

«لقد فكرت مليا.. وأريد العودة لأمريكا.. وإذا أردت العيش معى فسيكون هناك» هكذا فاجأها روس.

مستحيل إنه المكان الوحيد فى العالم الذى لم تتخيل أن تقيم به.. يا للهول! إنها لن تتخلى أبدًا عن حلمها فى أن تكون مكتشفة. ستكون الهند إذًا هى المحطة الرئيسية فى حياتها.

ورشحت إليزابيث نفسها ورحب الهنود الذين كانوا يعدون لبرنامج ضخم يهدف إلى تطهير منطقة كاملة تزخر بحالات الحمى فى جنوب القارة الهندية، وكانت تعد حقائبها عندما جاءها تلغراف يفيد أن البرنامج قد تأجل لأجل غير مسمى بسبب نقص التمويل، وانقلب الأمر كله فى لحظات.

أحست إليزابيث بدوار فور تلقيها النبأ ولكن «مانى» فرح بالخبر وقال لها «ستأتين معى بلا شك إلى نيويورك».

كانت الفكرة تخيفها.. فقد أرادت أن تعيش وسط الطبيعة.. حلمت بمغامرة كبرى تحقق فيها ذاتها.. ولكن الأمر لم يعد بيدها.

فى إحدى الليالى، نصحتها صديقة أمريكية تعمل ممرضة بالمستشفى أن تذهب مع «مانى» إلى نيويورك بدلاً من السعى وراء المجهول.

وذهبا إلى أمريكا على متن باخرة فرنسية فى رحلة شهر العسل، فقد تزوجا قبل مغادرة أوروبا مباشرة وأصبحت كنيتها «إليزابيث روس».

كان مانى وزوجته ثنائيا نشطًا شغلهما عملهما بمستشفى جلينكوف فى «لونج أيلاند» عن أى خلافات زوجية.. كانا دائما فى حالة طوارئ، واكتشفت إليزابيث الإيقاع السريع جدًا لحياة الأمريكيين.. إنهم أشبه بتروس داخل ماكينة.. شىء آخر بدا غريبًا وغير مقبول للقروية الأوروبية.. إن جميع النساء العاملات بالمستشفى من تومرجيات وممرضات ودايات يأتين للعمل بكامل زينتهن كأنهن فى نزهة.. الأدهى من ذلك أنهن يتحدثن عن المرضى وخاصة الذين يموتون بالمستشفى بمنتهى الاستهتار والاستخفاف.

إنهن يتعاملن كوحوش بلا قلب.. بلا رحمة، ولكن هذا المناخ الغريب الذى صدم إليزابيث فى الخمسينات سرعان ما انتشر فى جميع أنحاء أوروبا فى السنوات التالية.

وتكتشف إليزابيث أثناء عملها بالمستشفى حجم الأكاذيب الغريبة التى تحيط بالمرضى الميئوس من شفائهم.. إن مظاهرهم بالفعل خادعة.. فهم يتمتعون

بجمال وصحة وضخامة وقوة وسعادة وشباب، تجعل فكرة الموت أبعد ما تكون عنهم، كما أن الطبيب دائمًا يخفى عن المريض حقيقة حالته الصحية ويجعله يتعلق بأمل واهم بينما يُبلغ عائلته أو أصدقاءه بقرب نهايته، عندئذٍ تبدأ التمثيلية الروتينية.. أهل المريض يظهرون تفاؤلاً مبالغًا فيه لإخفاء دموعهم التى توشك أن تفضح مكنون صدورهم، ويفاجئ المحتضر بتصرفات متناقضة.. كلمات مليئة بالأمل وحركات وإيماءات تنطق بالقلق، وتكتشف إليزابيث عادة أن المريض يعلم بقرب نهايته ولكن تعلقه بالحياة وإنكار جميع من حوله للحقيقة يدفعانه لخداع نفسه وتصديق التمثيلية غير المحبوكة.

إن الأطباء أنفسهم يشاركون فى تلك التمثيلية، إما مضطرين أو مذعورين.. لقد أثبتت الدراسات والإستفتاءات التى تمت فى الثمانينات (بعد ربع قرن من هذه الأحداث) أن الأطباء وأعضاء المهن الطبية يخشون الموت أنفسهم أكثر من الأشخاص العاديين.

هذه الأكاذيب حول الموت أعطت إليزابيث انطباعًا صبيانيًا عن الأمريكيين.. هى وحدها تتسم بالصلابة والشدة بينهم.. فالموت بالنسبة لها يختلف عنه لدى أى طبيب آخر خاصة إذا كان يهدد حياة طفل، لذلك أرادت إليزابيث أن تصبح طبيبة أطفال، ووافق أحد أساتذة طب الأطفال أن تعمل معه شريطة ألا تحمل وتنجب أطفالاً، وبعد أسبوع واحد اكتشفت إليزابيث أنها حامل بالفعل.. فاضطرت لترك الوظيفة.

بحثت إليزابيث عن وظيفة أخرى فلم تجد، واضطرت لقبول وظيفة فى مستشفى نفسى بمانهاتن مقابل ٤٠٠ دولار شهريا وتلقت فى تلك الفترة عدة صدمات، بداية من الإجهاض حتى إصابة والدها بأزمة صحية تهدد حياته فى سويسرا. وانخفضت معنويات إليزابيث، ولم يخفف عنها سوى اختيار العاملين بمستشفى جلينكوف لها ولزوجها كأفضل أطباء المستشفى لذلك العام.. ولكن حتى هذه الفرحة لم تدم طويلاً، فقد رفضت الإدارة أن

تمنحها هذا التقدير الذى تحتفظ به لطلابها الذين يتلقون التدريب فيها.. إنه نوع من التعصب الصارخ!

فى الوقت الذى بدأت فيه إليزابيث تتعلق بالأمريكيين العاديين، بدا لها الزعماء فى صورة مخيفة. فى نهاية الخمسينات جاء عصر كنيدى.. كانت أمريكا فى قمة مجدها وكان شباب ونشاط الرئيس الجديد ينعكس عليها.. ولكن الأكاذيب أصبحت مثل بقعة الزيت التى سرعان ما تزداد اتساعًا، فالأمريكيون ينكرون جميع العقبات وجميع المشاكل.. إنهم متفائلون دائما بنسبة ألف فى المائة وكأنهم ملوك هذا العالم.

كان هذا المناخ مثيرًا لقلق إليزابيث التى كانت تخشى مثل كثيرين اندلاع حرب عالمية ثالثة فى تلك الفترة. إن المجتمعات الإنسانية تمر أيضًا بنفس المراحل المتعاقبة فى تجربة الاقتراب من الموت.. لذة العيش داخل أكذوبة.. ثم الغضب.. فالمساومة وأخيرًا اليأس.

فى أوائل شهر يوليو ١٩٥٩ ، استقلت إليزابيث الأوتوبيس عبر «هارلم» حتى وصلت إلى جزيرة الشيطان (كما تسميها).. قلعة قبيحة التصميم محاطة بمستودعات ضخمة للغاز ومحطات كهربائية.. تبعد خطوتين فقط عن الطريق البرى الذى يربط جزيرة مانهاتن بالمطارات.

أحست إليزابيث لدى دخولها المكان برائحة المعاناة والعنف والوحشية.. لقد تناولت آلاف الكتب هذه المنطقة.. إنها أشبه بسجن كبير، ولكنها الملجأ الوحيد للكثيرين، وكان مستشفى مانهاتن الذى ستعمل به إليزابيث أبشع ما فى المنطقة.

صحبها أحد مديرى المستشفى للتعرف على إمكانياتها.. مكاتب إدارية ومعامل يحاول فيها العاملون فى مجال الكيمياء الحيوية التوصل إلى عقاقير جديدة.. وهناك قسم التمريض وغرف العمليات والأقسام المختلفة المكتظة بمرضى الاضطراب النفسى وفصام الشخصية (الشيزوفرينيا) والاكتئاب

والجنون.. أربعة عنابر مكدسة بغالبية من الزنوج وأهالى بورتوريكو يرقدون خائرى القوى فى جميع الأركان سابحين فى بولهم.

كانت مهمة إليزابيث هى متابعة حالات السيدات المصابات بالشيزوفرينيا المزمنة، وتسجيل سلوكياتهن بعد أخذ العقاقير.. تجارب مستحدثة تجعل من هذه الحالات الميئوس منها حيوانات تجارب.. يا للمساكين! لا يدركن حقيقة ما يحدث.. كان يتم حقنهن بعقاقير منشطة بجرعات ضخمة تسبب لهن خيالات ونوعًا من الهلوسة.. وكانت هذه العقاقير تعطى جزافًا لأى مريضة مغلوبة على أمرها بدون علمها فتقودها للدمار، وتتلوى المسكينة من الألم والخوف بعد تعاطى الدواء وقد أصبحت فريسة لكوابيس بشعة.

قررت إليزابيث أن تلقى بكتب علم النفس فى القمامة.. ما جدوى هذه المحاولات إن كانت لا تفيد المرضى؟! وقررت أن تبدأ فورًا علاجهم بطريقتها الخاصة، تركتها إدارة المستشفى فى البداية تفعل ما يحلو لها فطلبت من المريضات الاهتمام بمظهرهن الخارجى وارتداء الأحذية وتصفيف شعورهن وغسل الأسنان حتى لا يتم حرمانهن من السجائر والكوكاكولا.. وبدأت المريضات يستجبن لها.. حتى الحالات المتأخرة منهن فهمت ما تريده هذه المرأة الأجنبية.

وبدأت المريضات يتعلقن بها.. كانت بمثابة أم تمد يدها لأطفال صغار يمرون بمحنة.. تقدم لهن الهدايا وتتعامل ببشاشة حتى مع المجانين.

وبدأ نشاط إليزابيث يؤرق رؤساءها.. إنها لا تستطيع أن تتحكم فى عواطفها وبالتالى لا تصلح لهذه المهنة.. هكذا قالوا وتوقعوا فشلاً سريعًا. ولكن حدث شىء غير متوقع.. فقد حققت إليزابيث نتائج باهرة مع إحدى المريضات بالشيزوفرينيا والتى كثيرًا ما كانت تصاب بإغماء مصحوب بتشنج.. إنها فنانة تشكيلية سابقة لم تتفوه بكلمة واحدة منذ عدة سنوات ولن تستطيع ذلك أبدًا على حد قول أطباء المستشفى.. إنها حالة معروفة ولا يمكن عمل شىء من أجلها.

طلبت إليزابيث أن تعتنى شخصيا بهذه الحالة.. وشعرت أن المستشفى لم يطردها للآن لأنه لن يجد طبيبًا أمريكيا آخر يقبل العمل فى هذا السجن، كانت الخرساء تدعى راشيل.. وجهها خالٍ من التعبير.. تبدو منغلقة على نفسها تمامًا.

وخلال ثلاثة أشهر كانت إيكر تتكلم، وكأن راشيل تستمع لها ولكنها فى الحقيقة لم تتأثر أبدًا بما يقال لها، كادت إيكر أكثر من مرة تعلن يأسها من استكمال المشوار بعد أن بدأ الأمر ينعكس عليها شخصيا.. هاهى تشعر بنفسها على مشارف الجنون وهى تتحدث لشهور مع تمثال من الرخام! ولن يستطيع أحد أن يعرف فى النهاية من المجنون، هى.. أم راشيل؟.

مرت عشرة شهور ولم يحدث أى تغيير، فطلب مدير المستشفى من إليزابيث أن تعيد راشيل إلى عنبر الحالات الميئوس منها. فتوسلت الطبيبة الشابة أن يمنحوها فرصة أخيرة.. حتى أعياد الكريسماس.

وفى يوم وقفت إليزابيث إلى جانب راشيل ترقبان معًا سقوط الثلج فى فناء المستشفى، وأخذت إليزابيث تحدثها عن روعة تسجيل هذا المنظر بريشتها، كانت تريد أن تحرك داخلها انفعال الفنانة بالمشهد الجميل، ثم استدارت إليها وأمسكت بكتفيها وتوسلت إليها أن تستجمع كل قواها لتقول فقط كلمة «نعم».

وسرت رعشة فجأة فى جسد المرأة السمراء وفقد وجهها ذلك الذهول الصامت، وتحركت شفتاها ببطء ووضعت يديها فوق الحنجرة ونطقت «نعم» بصورة محشرجة.. عندئذ لم تتمالك إليزابيث نفسها وانخرطت فى البكاء.

خلال أيام وبمساعدة الاخصائية الاجتماعية وأحد أصدقائها المعالجين، استطاعت إليزابيث أن تحقق نجاحًا مذهلاً مع المرأة المجنونة دون أن تعلن عن ذلك، وعندما جاء الكريسماس دعت إيكر مدير المستشفى لرؤية مرضاها.

فوجئ الطبيب النفسى براشيل منحنية فوق قماش تطريز والإبرة فى يديها، ونظرت إليه وبصوت مشوش ولكنه مسموع قالت: «ألا ترى ذلك جميلاً؟»

كان للخبر وقع القنبلة المدوية.. فهو شيء نادر الحدوث، وتخلت إليزابيث عن فكرة الرحيل من المستشفى ونظمت احتفالاً ضخمًا بمناسبة الكريسماس قامت فيه بصنع الحلويات بنفسها وتقديم الهدايا لجميع مرضاها.

بعد النجاح المذهل مع راشيل تم وقف معالجة حالات الجنون بالطريقة الوحشية القديمة.. وبدأ الأطباء النفسيون بالمستشفى يجتمعون شهريا لمناقشة أساليب العلاج النفسى لفرويد وأدلر وسكينر وغيرهم، لم تكن إليزابيث تقتنع بهؤلاء الرواد فقد كانوا بالنسبة لها غير مؤهلين لمهنة العلاج النفسى التى تحتاج لعاطفة القلب أكثر من ذكاء العقل.

صدمت آراء إليزابيث جميع زملائها ولكن نتائج تجاربها الشخصية مع المرضى كانت ترغمهم على الاقتناع بأفكارها.

سيدة زنجية شديدة العدوانية كانت هى الأخرى ضمن مريضات إليزابيث.. تعرضت هذه السيدة للاغتصاب عدة مرات من رؤسائها البيض وتم احتجازها فى المستشفى بعد أن حاولت خنق أحدهم، أدارت إليزابيث حوارًا مع تلك المرأة لعدة أسابيع ونجحت بعدها فى تخفيف ذلك العقار الكيميائى الذى يكبح جماحها ويصيبها بحالة من الذهول والفتور المخيف.

ذات يوم دخلت المرأة الزنجية مندفعة نحو مكتب إليزابيث بينما كانت تتحدث مع مريضة أخرى فأشارت إليها أن تنتظر.. ولم تتحمل المرأة أن تتجاهلها الطبيبة فاندفعت نحوها تحاول أن تخنقها فجاءت ممرضتان وأمسكتا بها وقادتاها إلى عنبر التعذيب. هذا المكان لم يُسمح لإليزابيث قط بدخوله ولكنها تعرف جيدًا ما يحدث بداخله: الصدمات الكهربائية التى يصاب المرضى بالفزع من مجرد ذكر اسمها.

بعد عدة ساعات، خرجت السيدة الزنجية منهارة تمامًا.. نظراتها تائهة تنطق بالرعب، واندفعت إليزابيث نحو المدير النوبتجى تهدده بأن تطلع الصحافة الأوروبية والأمريكية على ما يدور داخل هذا المستشفى إن لم تتوقف هذه الممارسات البربرية خلال أسبوع واحد.

وتوقعت إليزابيث أن يتم فصلها ولكنها لم تهتم، ولدهشتها استدعاها مدير المستشفى لمناقشة الأمر معها وأخبرها أنه يفكر بالفعل فى إلغاء العقاب بالصدمة الكهربائية خلال بضعة أشهر.

عندما غادرت الجزيرة عام ١٩٦١ .. كان ٧٥٪ من مريضاتها قد غادروها أيضا بعد أن أتاحت لهن التعرف ببطء على العالم الخارجى من خلال الخروج فى مجموعات صغيرة لشراء حاجاتهن من المحلات الكبرى.

وهكذا أنقذت ثلاثين امرأة من هذا السجن الرهيب الذى أمضين فيه سنوات طوالا (فإحداهن مثلاً قضت فيه تسعة عشر عامًا) اعتقدن خلالها أنه مصيرهن الأبدى.

من خلال أحاديثها مع هؤلاء السيدات، تيقنت إليزابيث من أن المرضى النفسيين – مثلهم مثل الأشخاص العائدين من غيبوبة – مهما كانوا خائرى القوى إلا أنهم يتأثرون كثيرًا بعاطفة من حولهم. إن حسن النية من جانب الطبيب النفسى أو الممرضة لا يكفى لمساعدة المريض على الشفاء إذا كان غير مصحوب بصدر رحب وقدرة على العطاء، إن الحب للأسف كلمة غير موجودة فى القاموس الطبى ولكنها – فى رأى إليزابيث – أهم ما تحتاجه المستشفيات الحديثة. كانت هذه الآراء الغريبة موضع سخرية من زملائها ولكن حيرتهم أمام نتائج تجاربها جعلتهم يؤمنون بها.

كونت إليزابيث حولها فريقًا للعمل وابتدعت نوعًا من العلاج الميدانى – طريقة مستحدثة فى ذلك العصر – تعتمد على إيجاد عائلات ترحب باستقبال

المرضى، فكونت فرق عمل صغيرة متنقلة ووضعت نظامًا عمليًا متميزًا يقوم أساسًا على الحب والقدرة على العطاء..

واصلت إليزابيث تدريبها فى مستشفى «مونتفيور» بولاية نيويورك.. وكانت آراؤها الغريبة تصدم زملاءها ومع ذلك كانوا يستشيرونها بانتظام بعد أن ثبت لهم أن طريقتها فى العلاج مؤثرة وفعالة.

ذات يوم سألها طبيب من زملائها عن «الكوميديا المرضية» التى يظهرها مريض شاب مصاب بالاكتئاب.. فهو يدعى منذ عدة أيام إصابته بالشلل رغم ما يتناوله من عقاقير مضادة للاكتئاب.

ذهبت إليزابيث لرؤية المريض وتحدثت معه لمدة ساعة ونصف ثم قالت لزميلها – إنها ليست تمثيلية كوميدية.. إنه مشلول فعلاً(وذكرت اسم مرض عصبى) وسيموت قريبا.

– ماذا ؟ إنك تمزحين ولا شك؟!

– أبدًا.. بل أعتقد أنه يشعر بدنو أجله، لهذا لابد من تفهم حالة الاكتئاب التى يعانى منها كمرحلة طبيعية قبل الاحتضار.. إنه ينتظر الموت!

نظر الطبيب النفسى إلى إليزابيث وعلى وجهه علامات الدهشة. إنها تهذى ولا شك.. ولكن بعد ثلاثة أيام تحقق كلامها ومات المريض الشاب بالمرض الذى قامت إيكر بتشخيصه وبعدها عزف زميلها الطبيب عن استشارتها فى أى حالة.

وأدركت هى أن الأطباء يعتبرون موت مرضاهم فشلاً شخصيًا، بل هو عار عليهم.

علمت إليزابيث أن والدها يحتضر لإصابته بالتسمم فهرعت إليه ورفضت محاولات أصدقائه لنقله إلى المستشفى وقررت أن ترعاه بنفسها فى منزله.

ظل مستر كوبلر يحتضر عدة أيام قضى معظمها يتحدث مع إليزابيث فى أمور فلسفية، اكتشفت أنه قرأ نوعيات مختلفة من الكتب منذ آخر لقاء بينهما.. فحدثها عن البوذية وعن الديانة الفارسية التى تؤمن بوجود إله للخير وإله للشر...

تعجبت الابنة من احتفاظ ذلك العجوز البروتستانتى المتحفظ بروح الدعابة إلى النهاية حتى أنه رفض حقن المورفين ليظل واعيًا لما يحدث حوله قدر الإمكان.

أحست إليزابيث بقلق أمها المتزايد.. فمجرد دخولها الغرفة يضفى نوعًا من الوجوم رغم أنها لا تقول شيئًا. وأدركت إليزابيث أن قلق أهل المحتضر ومحاولة إخفاء شعورهم تحد من استعداده لمواجهة الموت وتحرمه بصورة غير مباشرة من الاقتراب من المرحلة «الخامسة». لذا فإنه من الضرورى أن يتقبل أهل المحتضر رحيله النهائى ويتركونه يذهب فى سلام.

بعد وفاة والدها عادت إليزابيث إلى نيويورك ولكنها سئمت وزوجها المدينة الكبيرة.. كانا يتوقان للطبيعة والهدوء فبحثا عن عمل فى العديد من المستشفيات فى الغرب الأمريكى حتى استقرا فى دنفر عاصمة كولورادو.

هنا فى دنفر.. حدث تطور كبير فى حياة إليزابيث. قبل مغادرة نيويورك مباشرة استرجعت الطبيبة السويسرية حلمًا قديمًا.. تخيلت نفسها فى طبيعة مكسيكية ذات حرارة ملتهبة تتابع بعينيها فتاة هندية شابة تتهادى فوق جوادها، ثم تحثه بقدميها لينطلق بسرعة فوق جسر صغير ويدخل قرية جميع سكانها من الهنود فى جنوب غرب أمريكا.

وما كادت إليزابيث تصل إلى كلورادو حتى وجدت نفسها داخل الطبيعة التى كانت تحلم بها.. القرية الهندية والفتاة الهندية على ظهر الجواد، كان غريبًا أن يتحقق حلمها بهذه الصورة الدقيقة فأحست على الفور بنوع من الألفة بينها وبين هنود كولورادو.

فى دنفر عملت إليزابيث مساعدة للبروفيسور «سيدنى مارجولان» وهو طبيب نفسى تتناول دراساته وأبحاثه العديد من المجالات الطبية، فهو يعنى بالعلاقة بين المرضى والعواطف الانفعالية وكذلك الاضطرابات النفسية العصبية وتأثير الحالة النفسية على الجسد وهو تخصص حديث فى عالم الطب.

كانت اكتشافات مارجولان لا تزال فى مرحلة تجميع المعلومات فهو يخوض مجالاً جديدًا يحتاج للقدرة على التخيل والاستنتاج.. فيبحث مثلاً كيف يصبح الشخص الحزين أكثر عرضة للإصابة بالأمراض من الشخص المرح ؟!

كان الجهاز العصبى فى الستينات صندوقا مغلقاً بالنسبة للكثيرين من علماء النفس لا يهتم أحد بمحتواه.. لكن مارجولان سعى مع مجموعة من الباحثين لمعرفة الصلة الدقيقة بين النفس والجسد من خلال إجراء العديد من التجارب.

كان أول عمل تسلمته إليزابيث مع فريق مارجولان هو تنظيف جهاز كشف الكذب الذى علاه الصدأ.. ورغم أنها مهمة مملة إلا أن اطلاعها على الأرشيف الخاص بمارجولان ومتابعة أبحاثه كان يهون عليها الأمر – كان البروفيسور يدرس مجال التنويم المغناطيسى وقبلت إليزابيث أن يتم تنويمها مغناطيسيًا ثم تعلمت هذا الأسلوب.

ذات يوم بينما كانت إليزابيث تحت تأثير التنويم المغناطيسى رأت نفسها فى ثوب تلك الفتاة الهندية التى حلمت بها من قبل، تجلس فى قارب وفجأة خرج رجل هندى من قبيلة أخرى من الماء واندفع نحوها يحاول إغراقها، وفجأة توقفت التجربة قبل نهاية الحلم.

فى اليوم التالى، علمت الطبيبة أن أحد الطلبة الذين خضعوا للتنويم المغناطيسى بالأمس فى نفس اللحظة فى غرفة أخرى رأى حلمًا معاكسًا.. فقد كان هو ذلك الهندى المعتدى، وانهالت الأسئلة على مارجولان من قبل الطلبة يريدون تفسيرًا معقولاً لما حدث ولم يستطع البروفيسور سوى تجنب التعقيب على الحلم الغريب.

خلال بضعة أشهر، توثقت الصداقة بين سيدنى مارجولان وإليزابيث.. وفى عصر أحد الأيام بينما كانت تقوم بتنظيف أحد الأجهزة جاء ليخبرها بأنه سيسافر لمدة أسبوعين إلى الجنوب حيث يذهب بانتظام لنيومكسيكو لمتابعة دراساته عن الهنود.

قال البروفيسور: لدى مشكلة.. وهى موعد المحاضرة التى ألقيها شهريا على طلبة السنة النهائية ولا يمكننى تأجيل هذه الرحلة.. آه! لقد جاءتنى فكرة جيدة.. ستقومين أنت يا إليزابيث بإلقاء المحاضرة بدلاً منى.

وخرج البروفيسور من المكتب دون أن ينتظر الرد، وهرعت إليزابيث خلفه فى قلق لتعرف هل سيترك لها مارجولان نص المحاضرة أم أنه يريدها أن تُعدها وحدها معتمدة على مذكراته الطبية؟!

قال البروفيسور: إننى لم أُعد شيئًا على الإطلاق.. عليك بإيجاد موضوع شيق ولديك أوراقى، إننى واثق فى إمكانياتك.

كاد أن يغشى عليها.. هل تستطيع أن تحل محله وتحاضر كأستاذ فى موضوع مثير فى مجال علم النفس.. وأمام ثمانين طالبًا جاءوا خصيصًا وراء شهرة مارجولان؟

قالت: لابد أنهم سيهرعون خارج القاعة فور رؤيتى مكانك! هز البروفيسور كتفيه غير عابئ وانصرف.

ظل القلق الشديد يعتصر إليزابيث لمدة ثلاثة أيام، ماذا تفعل؟.. إنها تستطيع الآن أن تتحدث بلغة إنجليزية مفهومة رغم لهجتها الغريبة.. ولكن ما هو الموضوع الذى يمكن أن يستحوذ على اهتمام هؤلاء الطلبة ذوى التخصصات المختلفة فى الجراحة وأمراض النساء والرمد والذين يسخرون عادة من غرائب علم النفس. إن السيطرة على مثل هذا الجمع تحتاج إلى شخصية مؤثرة مثل مارجولان.. فهو يتطرق إلى عدة نقاط فى المحاضرة الواحدة وينتقل من موضوع

إلى آخر باقتدار شديد يجبر حتى الطلبة المشاغبين على السكوت والإنصات إليه باهتمام خلال خمس دقائق على الأكثر من بدء المحاضرة.

فى يوم الأحد وبينما كانت إليزابيث تسقى الورود فى الحديقة بدأت فكرة المحاضرة تتبلور فى رأسها شيئًا فشيئًا.. مثل صورة فوتوغرافية تظهر تدريجيا أثناء التحميض، لابد من طريقة لتستحوذ بها على مشاعر وفكر هؤلاء الطلبة.. إنها ستحدثهم عن الموت.

ذهبت لزوجها لتخبره بالفكرة ولكنه أغرق فى الضحك قائلاً: «إن الأطباء يهتمون بالحياة لا بالموت.. ولكنك على الأقل ستحققين نجاحًا، فسوف يسقطون من الضحك عندما تحدثينهم عن الموت»..

هزت إليزابيث رأسها غير مقتنعة.. إنه مخطئ، فالموت أمر هام يستحوذ على مشاعر الإنسان.. ولكن الزوج لم يقتنع لأن الموضوع غير علمى.

تعلم إليزابيث جيدًا أن الموت يمثل مشكلة ضخمة.. فهم لا يتكلمون عنه إلا من باب السخرية مثلما يدبر الطلبة القدامى بعض المقالب الساخنة للمستجدين بوضع أذن ميتة أو جزء من جثة آدمية فى حقائبهم قد يعرف الأطباء جيدًا ما يصيب الجسم البشرى من جروح وأورام وأمراض وكسور.. ولكنهم أبدًا لا يهتمون بما يحدث داخل عقله عند مواجهة الموت.

إن مهمتهم الأساسية هى علاج الجسد وليس بذل جهد ضائع فى محاولة اكتشاف مكنون النفس.

فى اليوم التالى ذهبت الطبيبة السويسرية إلى مكتبة كلية الطب للبحث عما كُتب فى هذا الموضوع، وفوجئت بعدم وجود أى مراجع تفيدها على الإطلاق حول الحالة النفسية للشخص المحتضر، وقضت يومًا كاملاً تتصفح جميع المجلات الطبية التى تصدر فى أمريكا.. لا شىء عل الإطلاق!.. إن الموضوع يبدو غير هام للطب الحديث الذى يهتم فقط بنوعية الغذاء والعقاقير التى تقدم للمحتضر دون الالتفات لمعاناته النفسية.

فى الموسوعات الطبية الضخمة عثرت إليزابيث على أكثر من تعريف للموت الطبى، هل يموت الإنسان عندما يتوقف التنفس؟.. لا ليس بتلك السرعة.. إذًا عندما يتوقف القلب عن النبض.. لا.. كان ذلك اعتقادًا شائعًا.

إن التقدم التكنولوجى الذى أتاح عمل رسم كهربائى للمخ يؤكد أن الشخص يصبح ميتًا من وجهة نظر الطب عندما يتوقف عمل المخ وبالتالى الإشارات الكهربائية التى يرسلها إلى الجهاز.

ووقعت فى حيرة.. إن الأطباء لا يستطيعون حتى الآن وضع تعريف محدد للموت، ماذا يحدث فى تلك اللحظة الحرجة التى تنتهى فيها الحياة؟ إن توقف نشاط الإنسان – بأى صورة من الصور – لا يعطى إجابة قاطعة لهذا السؤال.

إن تلك الثغرة الطبية تظهر بوضوح عجز علم الأحياء عن وضع تصور شامل للحياة.. إن علماء الأحياء يبحثون منذ زمن بعيد ولكنهم لم يتوصلوا حتى الآن إلى سر هذا اللغز: الموت.

محتضر وراء الستار

فى معهد التحليل النفسى بشيكاغو، بدأت إليزابيث عملها مع محلل نفسى يتسم بجفاء الطبع فتركت العمل معه بعد أن صارحته بآرائها عن المراحل الخمسة للموت، بعدها علمت بقدوم الدكتور «بوم» من فيينا.. كان العالم اليهودى لطيفاً معها، ووافق أن تعمل تحت إشرافه وهو أمر نادر الحدوث بالمعهد.. فاستطاعت معه أن تنهى دراسة التحليل النفسى خلال عامين.

فى أحد أيام ديسمبر ١٩٦٥ وبعد ثلاثة أشهر من وصول إليزابيث إلى شيكاغو، دخل مكتبها أربعة من الطلبة بينما كانت تُعد محاضرة عن الاضطرابات النفسية العصبية ورجوها أن تساعدهم.. فهم يدرسون علم اللاهوت (الديانات) ليصبحوا وعاظاً فى المستقبل ولكن رءوسهم امتلأت بالنظريات دون أن يشاهدوا عن قرب حالة احتضار واحدة.. فكيف لهم أن يمارسوا مهنتهم بعد التخرج؟!

كان الطلبة قد سمعوا عن محاضرة إليزابيث فى دنفر مع ليندا الفتاة المصابة بسرطان الدم.. فجاءوا إليها بعد أن كُلفوا بإعداد بحث عن إحدى الأزمات التى يمر بها الإنسان فى حياته.. ولم يجدوا أصعب من لحظة الاحتضار.. لهذا فكروا فيها وطلبوا منها أن تسمح لهم بمصاحبتها فى المرة التالية التى تزور فيها أحد المحتضرين.

بدأ الأمر غريباً بالنسبة لإليزابيث. يا للمفارقة!

يأتى إليها قساوسة المستقبل لتساعدهم على أداء مهنتهم فى مواجهة المحتضرين.. هى بالذات التى نشأت على الديانة البروتستانتية ثم رفضتها بعد ذلك.

فعندما أرادت إليزابيث أن تنال الجنسية الأمريكية وتتزوج امانويل روس سُئلت عن ديانتها فكتبت، لا أدرى. إنها تعتبر نفسها واقعية، فهى لم تقتنع أبداً بممارسة الديانة البروتستانتية.

أخذت إليزابيث تفكر كيف تواجه هذا الموقف الحرج.. إنها لن تستطيع إرسالهم للمكتبة للبحث عن شىء يفيدهم، فهى تعلم جيداً بعدم وجود أبحاث علمية أو دراسات حديثة فى هذا المجال، لذلك كان عليها إما أن تبادر بالموافقة أو ترفض بصراحة.

حتى الآن لازالت جهود المختصين فى علم النفس تتركز على لحظة الميلاد والمراحل الأولى من الحياة متجاهلة تماماً الجانب الآخر (الموت) كما لو أن الإنسان يصبح غير ذى قيمة عندما يقترب من الموت، كل ما هنالك إبداء شىء من الإعجاب البارد والقلق الخفى إزاء صموده فى اللحظات الأخيرة.. فالمفروض أن المحتضر يجهل حالته ولكن ذلك الافتراض لا يستند إلى حقيقة علمية.. إنها مجرد افتراضات لا يستطيع الأطباء النفسيون أو غيرهم أن يفعلوا شيئاً إزاءها إما عن خوف أو جهل أو بلادة فى الشعور.

ولكن لأنها عاطفية وتعلم من خلال تجاربها فى الحياة الكم الهائل من العواطف الإنسانية، التى تزخر بها تلك المنطقة المحرمة فى حياة الإنسان (حالة الاحتضار).. فهى ترى تجاهل العلماء المعاصرين لتلك الحالة جريمة لا تغتفر بل وحماقة أيضاً.. إنهم يحاولون فقط إطالة عمر الإنسان لأقصى درجة وبذلك تطول فترة الاحتضار وتتسع مرحلة الكذب والخداع التى يتصور ويتوهم فيها الإنسان أنه أصبح آمنا من الموت.

بدت لإليزابيث فكرة مساعدة دارسى العلوم الدينية سخيفة ولكنها قبلت، ووعدت بأن تخبرهم عندما تسنح لها فرصة لقاء شخص يحتضر.. وبدأت بالفعل تبحث عن هذا الشخص فى مستشفى «بلينجز» الواسعة.

بعد بحث طويل دون جدوى سألت زميلاً لها إن كان لديه ضمن مرضاه شخص ميئوس من شفائه يقبل التحدث مع بعض دارسى العلوم الدينية.. ليكلمهم عن رؤيته للحياة وهو موشك على مغادرتها، ضحك الطبيب ساخراً وتركها وانصرف ظنًا منه أنها تمزح.

لم تفهم إليزابيث موقفه حتى فوجئت بالرفض للمرة الخامسة فبدأت الأمور تتضح أمامها: «إنك مجنونة».. «ألا تخجلين من نفسك».. «تريدينهم أن يحدثوك عن نهايتهم القريبة ؟!».. «هل يثير هذا الحديث غرائزك أم ماذا ؟!».

ردود غريبة انهالت عليها بسبب طلبها.. بل إن إحدى الممرضات تماسكت بصعوبة كى لا تصفعها عندما عرضت فكرة الحديث مع شاب مصاب بالسرطان عمره ٢٣ عاماً وقالت لها: (كيف توقظين جراح هذا المسكين.. أيتها السادية التى تتلذذ بتعذيب الآخرين!).

أخيراً أبدى أحد الجراحين تعاطفاً معها بعد أن أدرك أنها ليست شريرة، ولكنه رجاها أن تتخلى عن هذه الفكرة المجنونة قائلاً «نحن لا نستطيع أن نزج بمرضانا الميئوس من شفائهم إلى مزيد من اليأس والكآبة، يكفيهم ويكفينا حالتهم الحرجة».

بعد ثلاثة أيام من البحث المضنى، كان لابد لإليزابيث أن تواجه الحقيقة، لقد رفض جميع العاملين بالمستشفى أن تتحدث مع أى محتضر، وكان الرد الجماعى للأطباء «أن أحداً لا يموت لديهم».. وعندما تسأل عن الحالات الميئوس منها يكون الرد: تكفيهم آلامهم ولن نسمح لك بأن تجعلى منهم لعبتك!

كان يمكن أن تتوقف الأمور عند هذا الحد لولا أن جاءت الفرصة أحد أيام الجمعة فى الساعة الحادية عشرة مساءً بعد أن غادر جميع الأطباء المستشفى لتمضية أجازة نهاية الأسبوع.

كان الطبيب الوحيد بالمستشفى فى ذلك الوقت رجلاً فى الستين من عمره، يكرس حياته ووقته لمرضاه وقد جاء ليطمئن على حالتهم فى زيارة أخيرة قبل الذهاب للأجازة.

تحدثت إليزابيث مع الطبيب واستمع إليها باهتمام ودون أن يتفوه بكلمة قادها إلى غرفة أحد مرضاه.. رجل طاعن فى السن منهار تماماً، يتغذى من خلال أنبوبة تخرج من أنفه ولكنه يعى كل شىء حوله، وعندما علم العجوز بنية إليزابيث أشار إليها أن تجلس، كان يريد أن يتحدث إليها.. ولكنها تذكرت الطلاب الأربعة.. ربما لن تسنح فرصة مماثلة قبل وقت طويل. فهمست فى أذن العجوز: (تماسك يا سيدى وسأحضر غداً». وذهبت إليزابيث للاتصال بالطلبة.

فى اليوم التالى، عندما اجتمع الخمسة فى غرفة العجوز كانت قواه قد انهارت فكان أضعف من أن ينطق بكلمة. وشعرت إليزابيث بعرق بارد يسرى فى ظهرها.. وأمسكت بيد العجوز قائلة: «شكراً على أى حال».

وأشارت لهم الممرضة أن يغادروا الغرفة بعد أن أصابهم الإحباط، وما كادت إليزابيث تصل إلى مكتبها حتى دق جرس التليفون.. لقد مات العجوز فى تلك اللحظة!. كانت لحظة مريرة بالنسبة لها.. تذكرت كيف رفضت بالأمس الاستماع إلى العجوز باستخفاف فأحست باللوم وتأنيب الضمير، وتركها الطلبة فى هدوء فجلست وحدها فى المكتب الصغير تفكر بأن الوحيد الذى يمكن أن تنفث عن ضيقها معه هو رئيسها المحلل النفسى الذى ينصت إليها دائماً باهتمام.

خلال بضعة أسابيع، أدركت إليزابيث أهمية التحليل النفسى فى اكتشاف تلك المنطقة المحرمة (الاحتضار) فى رحلة الإنسان والتى دفعتها الظروف للاقتراب منها.. وساعد على اقتناعها بهذه الفكرة سرعة تلاحق الأحداث، فبعد أيام قلائل جاءت الفرصة الثانية.. عجوز آخر يحتضر بين مرضى نفس الطبيب.

هذه المرة.. تم اللقاء، وجلس الطلبة مبهورين ببساطة إليزابيث فى التحاور مع المريض، إنها تحدثه بحرارة واهتمام دون أن يبدو عليها الخوف.. لم تتطرق أبداً لنهايته القريبة ولكنه عندما بادرها بقوله «أعرف أننى لن أعيش طويلاً» لم تحاول أن تنفى أو تتجنب هذا الموضوع بل سألته عما يدور فى رأسه بعد أن علم باقتراب النهاية، وبهت العجوز من الدهشة ورفع كتفيه وهمس بجملة لم يستطع الطلبة أن يفهموها فى البداية فأعادتها إليزابيث على مسامعهم جميعاً «إنك لم تر ولدك منذ عامين بعد أن ترك المنزل عقب مشاجرة بينكما واليوم تخشى ألا تراه ثانية.. أليس كذلك؟.» وأومأ العجوز برأسه دون أن ينطق، فوعدته بأن تبذل قصارى جهدها لتحضر ابنه الشاب قبل فوات الآوان.

كان المشهد مؤثراً بالنسبة للطلبة.. سيتذكرون طوال حياتهم كيف استطاعت الطبيبة أن تخترق أعماق ذلك المحتضر.

خلال بضعة أيام، نجحت إليزابيث فى العثور على الابن المختفى وأقنعته بالحضور لرؤية والده فى المستشفى، ومات الأب بعدها بأيام هادئ النفس قرير العين.

كان العمل الحقيقى لإيكر هو تدريس الطب النفسى.. وكانت تقوم بذلك على طريقتها الخاصة غير التقليدية معتمدة على بعض الأبحاث التى قامت بها نيويورك، أما دراسة الموت فلم تكن ضمن برنامجها الدراسى.

فى إحدى محاضراتها.. تناولت إليزابيث كيفية التفاهم مع المرضى الذين يعانون من مرض عقلى عن قناعة تامة بأنه يمكن التفاهم مع أى شخص حتى لو تحول إلى تمثال من خشب إذا استخدمنا لغة القلب وتعاملنا معه بحب.

فى نفس الوقت وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى استطاع رجل يدعى «دليجنى» أن يدير حواراً طويلاً مع بعض الأطفال الانطوائيين وخرج بنتائج تتشابه نوعاً ما مع ما توصلت إليه إيكر.

باختصار نجحت إليزابيث فى دورها كأستاذ مساعد فى الطب النفسى، وبعد خمسة سنوات تم اختيارها من قبل الطلبة «كأفضل أستاذ لهذا العام».

كانت طريقتها فى التدريس والتى تأثرت مباشرة بأساتذتها القدامى السويسريين هى نفسها التى اتبعتها فى «دنفر» مع ليندا.. بدعوة المرضى النفسيين لمناقشتهم أمام الطلبة.

فى شيكاغو اتخذت المحاضرات شكلاً آخر.. كانت المحادثه تتم بينها وبين المرضى داخل (حوض الأسماك) كما يطلق عليه الطلبة. وهو عبارة عن حجرة صغيرة بها مرآة غير عاكسة تستخدم كحاجز أو ستار ومع أن المرضى يعلمون بوجود الطلبة خلف ذلك الستار إلا أن ذلك يجعلهم أقل خجلاً وارتباكاً من رؤية هذه الوجوه، وهى تتفرس فيهم وتحلل كلماتهم. هكذا وضع الشكل الأولى لما أطلق عليه فيما بعد (الندوة التحليلية).

فى البداية.. كان المرضى الذين يقع عليهم الاختيار لحضور هذه المحاضرات يعانون من مرض عقلى مثل الفصام (شيزوفرينيا).. حتى كان يوم فوجئت فيه إليزابيث بمجموعة من طلبة الطب والممرضات ودارسى العلوم الدينية يأتون إليها لتساعدهم فى ترتيب لقاءات مع بعض المحتضرين.

كانت الممرضات أكثر إلحاحاً لأنهن يتعاملن بصورة مباشرة مع المحتضرين، ويضطرون للاحتكاك بهم حتى اللحظات الأخيرة التى يقمن فيها بتنظيف أجسادهم وهى أشبه بجثة هامدة.. غير أن التدريب العملى فى مهنة التمريض لا يهتم للأسف بهذا الجانب الإنسانى الخطير.

سمعت بعض الممرضات من شيكاغو بالمحاضرة التى ألقتها إليزابيث فى دنفر وتابعت الكثيرات منهن محاضراتها عن الطب النفسى فاقترحن عليها أن تستبدل المرضى النفسيين فى الندوة التى تنظمها بشخص يحتضر ليتكلم عن تجربته من وراء الستار.

فكرت إليزابيث ملياً فى الأمر بعد إصرار الطلبة والممرضات على اقتراحهم.. إنها بالفعل لا تستطيع أن تجمع خمسين شخصاً فى غرفة مريض يحتضر.. فوافقت فى النهاية رغم علمها بأن هذه الخطوة ستثير سخط زملائها.

وتوالت الصدمات فى حياة إليزابيث ومن حولها.

فى عام ١٩٦٦ شعرت الطبيبة بهاجس يلاحقها لعدة ليال مؤكداً لها أن والدتها تحتاج إليها فقررت السفر إلى زيورخ.

عندما وصلت إليزابيث إلى المنزل وجدت أمها فى صحة جيدة، فحدثت نفسها قائلة «هل جننت؟ أم أنها إحدى علامات الإرهاق؟!» ولكن عند اصطحابها للمطار قالت لها أمها قبل الرحيل «أريدك أن تعدينى بشكل جاد أن تساعديني على الموت فى هدوء إذا ما أصبحت بمرض ذهب بعقلى أوأقعدنى عن الحركة».

شعرت إليزبيث بالدم يتجمد فى عروقها فعجزت عن الكلام لفترة ثم استجمعت قواها لتقول: «إن ذلك لن يحدث أبداً. إننى أفضل الانتحار على أن أعجل بموتك».

ونظرت مدام كوبلر بحدة لابنتها التى أضافت: إننى أعتقد يا أمى أنه ليس من حق أحد أن يتدخل لإنهاء حياة إنسان.. إنها جريمة.

إن الأطباء يلجأون إلى استخدام المسكنات دائماً ليخففوا الآلام الجسمانية للمريض، ولكنها ترفض هذه الأدوية التى تجعل المريض يحتضر بدون وعى، فلا توجد فلسفة يمكن أن تبرر من وجهة نظرها حرمان المريض من هذه المرحلة الهامة فى حياته، كيف نحرم المحتضر من بلوغ المرحلة الخامسة؟! إن أى فيلسوف أو شخص عادى لابد وأن يهتم ببلوغ تلك المرحلة فى لحظاته الأخيرة، إنها خيانة أن يضحى الشخص المحتضر بهذه المرحلة العظيمة ليشترى حياة رخيصة ظاهرها الرحمة.. يتخبط أثناءها فى اللاوعى بسبب الأدوية المسكنة

التى تحرمه من تجربة الاقتراب من الموت بكل ثرائها وتميزها الفريد عن جميع تجارب الحياة.

لم تكد تمر ستة أشهر حتى أصيبت مدام كوبلر بالشلل التام من رأسها حتى قدميها.

وأدركت إليزابيث خلال فترة قصيرة بأن والدتها لن تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة بعد الآن. فحاولت أن تجد وسيلة اتصال يمكن من خلالها فهم احتياجات والدتها التى تستطيع فقط أن تفتح وتغمض عينيها، فكانت طرفة واحدة من العين تعنى «لا» بينما تعنى حركتان متتاليتان كلمة «نعم».

قامت إليزابيث بعمل لوحات تجمع العديد من الصور والكلمات مثل «أشعر بالعطش».. «أريد التبول».. «شىء ما يحك ظهرى أو قدمى اليمنى». كانت هذه طريقة مبسطة للتفاهم فالمرضة تشير بإصبعها على اللوحة وتتبع عينى المريضة.. كان الأمر فى البداية مملاً وصعباً ولكن مع الحب لا يوجد شىء مستحيل.

مضى شهر.. شهران.. ستة أشهر.. أربع سنوات.. فترة طويلة ظلت خلالها مدام كوبلر تحتضر دون أن يطرأ عليها أى تحسن وأخيراً نامت فى هدوء مثل طفل صغير بعد أن وضعت معتقدات إيكر أمام اختبار صعب جعلها تتجرع المرارة طوال هذه السنوات لرفضها بإصرار أن تعجل بموتها، وتنهى آلامها بالمسكنات التى تفقدها الوعى، وبدأت إيكر تهدأ بالاً بعد أن أدركت أن المحتضر يعود لمرحلة الطفولة التى توقظ بداخله قوة الملاحظة الشديدة والانفعالات القوية.

كانت الصدمة الثانية موجهة للطلاب المواظبين على حضور محاضراتها والذين تلقوا فى تدرياتهم العملية صدمة اللقاء الأسبوعى بالمحتضرين.. فقد وعدتهم إليزابيث بأن تستعين بإحدى هذه الحالات فى ندوتها كلما استطاعت ذلك.

وخلال أسبوع من البحث.. استطاعت إليزابيث أن تعثر على ضالتها فى قسم القلب أيضاً.. سيدة ضخمة فى الخمسين من العمر.. أم لتسعة أطفال فى مختلف الأعمار.. تنتمى إلى طبقة العمال الكادحة حيث البؤس والمعاناة.

كان من الواضح أن السيدة لازالت فى المرحلة الأولى.. مرحلة **الرفض والاستنكار**، فهى تظهر بأعصاب متماسكة مؤكدة أنها لن تموت.. إن الرفض هو الدرع المؤقت الذى يحاصر العقل ويمنعه من التفكير فور إعلان الحكم باقتراب النهاية.. إنه يمثل مرحلة أساسية فى التجربة، ولكن المشكلة الوحيدة هى المناخ المحيط بالمدن الكبيرة الحديثة فهو يحاول وقف تسلسل المراحل الخمسة ويمنع تحول فكر الإنسان عن المرحلة الأولى، فالجميع يرفض الموت ويحاول تجاهله ونسيانه بالانغماس فى ملذات الحياة والعيش فى الذكريات الحلوة والعودة لمراحل الطفولة والشباب.

ولكن آجلاً أم عاجلاً تسير الأمور فى مجراها الطبيعى وتتطور الحالة إلى المرحلة الثانية: مرحلة **الغضب**. كانت هذه السيدة من المرضى المزعجين الذين يرهقون الممرضات بطلباتهم وكانت دائمة الشكوى رغم أنهن يرضخن لجميع طلباتها.

أبدت السيدة هدوءاً غريباً عندما اقترحت عليها إليزابيث أن تعرض شكواها أمام مجموعة من الطلبة والممرضات، ولكنها لم تفهم فقالت لها إليزابيث: إنك ستشرحين لهم ليفهموا ويتعلموا فأرضت بذلك غرورها وأشعرتها بقيمتها حينما وضعتها فى مركز الأستاذية.

فى غرفة المحاضرات ذات الستار توقفت المرأة عن الشكوى وقالت: إنها تعلم بقرب موتها ولا تطيق محاولات النفاق والكذب التى تحيط بها، إنها تفضل أن يتعامل الناس معها بصورة أكثر جدية وأكثر وضوحاً لتشعر بالاسترخاء والهدوء فالإنسان يقضى حياته كلها بحثاً عن راحة البال.

وهكذا تحولت المريضة المشاكسة إلى إنسانة أخرى خلف الستار وأدركت الممرضات – رغم قصص الموت التى يعشن فيها داخل المستشفى – معنى التفاهم مع المحتضرين فى مجتمع لا يتعامل مع الموت إلا من خلال طريق غير مباشر.

كانت الصدمة أشد وقعاً على طلبة الطب بمستشفى «بلينجز» فقد حذرهم أساتذتهم من الانسياق وراء القصص العاطفية والبعد عن الجانب العملى خاصة فى مجال علم النفس وذلك فى الوقت الذى كانوا يتابعون فيه باهتمام ندوة إليزابيث التى تحتل العواطف والمشاعر الإنسانية المقام الأول فيها.

اختلفت ردود فعل الطلبة عندما فاجأتهم السيدة أثناء الندوة بقولها: «إننى سأموت». هرب البعض من القاعة وانخرط بعضهم فى البكاء وآخرون تأثروا بشدة لدرجة الغضب، وبكت المريضة هى الأخرى.. وعندما غادرت القاعة كانت أشبه بمن يتأرجح بين المرحلتين الرابعة والخامسة، بين **الشعور باليأس** وبين السكون الشديد **والاستسلام للواقع**.

كانت ندوة إيكر تمثل أيضاً صدمة لغيرها من الأطباء الذين ذهلوا من قدرتها على مناقشة المرضى حول قرب نهايتهم.. إنها ظاهرة خطيرة حاول كبار الأطباء التصدى لها ولكن الوقت قد فات لعمل شىء.. سواء أرادوا أم لا.. فإن مستشفى بيلينجز ظل لمدة ثلاث سنوات يقدم لإيكر أحد المحتضرين من مرضاه لتناقشه فى ندوتها الأسبوعية.

وشاع الخبر بسرعة داخل المستشفى وخارجها. وبعد عامين وفى سنة ١٩٦٨ تم إدخال طريقة إليزابيث فى مناقشة المحتضرين من وراء الستار ضمن البرنامج الدراسى لجامعة شيكاغو.. وذلك بعد أن بدأت الأبحاث العلمية تتناول هذا الأسلوب الجديد فى تدريس علم النفس، وكان الطلبة يجدونه أسلوباً ممتعاً للغاية، لأنه يحقق رابطة إنسانية وعاطفية بين المريض والطبيب، وهكذا اشتهرت إليزابيث على مستوى الجامعة.

وفى عام ١٩٦٨ حدثت الصدمة الكبرى فى حياة الشعب الأمريكى ألا وهى حرب فيتنام، كان الحديث عنها لا ينقطع فى الجامعة، فقد شغلت أذهان الطلبة وغيرت الكثير من مفاهيمهم القديمة. كانت الصدمة الأولى هى إغتيال كنيدى عام ١٩٦٣ ولم يستطع الأمريكيون وقتها استيعاب معنى تلك الحادثة حتى جاءتهم الصدمة الثانية بعد خمس سنوات متمثلة فى هزيمتهم فى حرب فيتنام فأثارت لديهم المخاوف التى طالما حاولوا قمعها بداخلهم.. الخوف من الشيخوخة ومن الموت.

وفيما بعد أصبح المحاربون القدماء في فيتنام نماذج غنية استعانت بها إيكر فى ندواتها حتى أصبحوا يمثلون واحداً بين كل اثنين من المشاركين فى تلك الندوات.

وفى ظل الأحداث المتلاحقة فى الولايات المتحدة عقب بدء حرب فيتنام، كانت إيكر تمارس عملها الذى لفت إليها الأنظار. فى إحدى ندواتها التقت بمريض في الخمسين من عمره مصاب بورم خبيث سرى وتغلغل فى جسده وعظامه وأحال لونه إلى الاصفرار وتسبب فى سقوط شعر رأسه، وظل الرجل لاسابيع طويلة يعانى ويشكو باستمرار حتى نفذ صبر الممرضات.

أبدى الرجل غضبه عندما صارحته إيكر لأول مرة بأنها تعد بحثاً صغيراً عن المرضى ولكنه وافق على الحديث معها فسألته عن عمره ومرضه وعائلته، قال الرجل:

لقد دخلت المستشفى منذ أبريل الماضى لأول مرة وأخبرونى أننى مصاب بالسرطان.

– وماذا كان رد فعلك؟

– لقد صدمت بكل تأكيد.. لقد جئت فقط لعمل كشف باطنى لأن أمعائى غير مستقرة وتنتابنى حالات متتالية من الإمساك والإسهال.. ولكننى لم أفكر أبداً فى هذا المرض اللعين.

كان الطبيب الذى فحص ذلك الرجل صريحاً بصورة فجة فقال له: «إنك تواجه الموت.. كان والدى يعانى من نفس الحالة وتوفى بسببها» !

تعجبت إيكر من تصرف ذلك الطبيب.. فقد جرت العادة على معاتبة الأطباء لإخفائهم الحقيقة عن المرضى.

وأخذ مريض السرطان يحكى قصة حياته.. إنه مهندس كيميائى متزوج من مدرسة لغة إنجليزية، ناجحة ومحبوبة بين تلميذاتها ولديه ولدان أحدهما فى العشرين من عمره والآخر فى الثانية والعشرين أما ابنته الوحيدة فقد توفيت فى إيران وتركت طفلين صغيرين لزوجها الذى يعمل فى مصانع البترول.

استمعت إيكر إليه وهى تبحث عن حلقة مفقودة فى روايته.. إن شيئاً ما يدفع هذا الرجل للتشبث بالحياة رغم أن حالته الصحية تؤكد أنه يموت تدريجيا, شىء ما ينقصه ولابد من عمله قبل أن يغادر عالم الأحياء.. ربما يشعر بأنه حُرم من تلقى العزاء فى ابنته التى ماتت ودفنت بعيداً عنه.. ولكن ذلك يحدث لكثيرين!.. كما أنه غير راغب فى الحياة ذاتها. هناك سر لابد أن تتوصل الطبيبة لاكتشافه.

إن الصراعات النفسية التى تتضارب داخلنا أثناء الحياة سرعان ما تظهر على السطح مع اقتراب نذير الموت رغم المحاولات المستميتة لإخفائها.. وهذا الرجل الذى يبدو عاجزاً أو غائباً عما يدور حوله يعانى من صراع رهيب.. وما كاد يتحدث عن زوجته حتى تأكدت إليزابيث من أنه يعانى من عقدة نقص كبيرة فى مواجهتها.. تلك المرأة المتسلطة التى تستطيع تدمير كل شىء حولها، كلما مرت بهما سنوات العمر شعر بأنه ضعيف وتافه بجانبها.. كانت دائما تتهمه بأنه ينتمى لفئة الخاسرين فهو لا ينجح فى إنجاز أى عمل، وزاد الأمر سوءاً أن أصبح ولداه مثله.. مجرد نكرة.. حتى أن أحدهم فشل ويالله العار! فى الالتحاق بالجيش.

قال الرجل فى مرارة :

«الآن أموت فى الثانية والخمسين من عمرى ومازلت نكرة.. إننى متأكد من أن موتى سيكون الدليل الأخير على ضعفى وتفاهتى أمام زوجتى».

لم تدم المحادثة بين إيكر والمريض أكثر من عشرين دقيقة، ولكنها كانت المرة الأولى وربما الأخيرة التى يتحدث فيها عن نفسه بهذا الشكل، وعندما ورد ذكر الموت على لسانه فاجأته إيكر بسؤالها: «ماذا يعنى الموت بالنسبة لك؟» وفكر الرجل للحظات ثم أجاب إنه لا يهتم بالموت، فهو مؤمن قضى حياته كلها مواظباً على إقامة الشعائر فى الكنيسة.. ولكن ذلك على ما يبدو لم يكن كافياً ليمنحه الهدوء والإستسلام لإرادة الله.

فى اليوم التالى، ذهبت إليزابيث للقاء الزوجة المتسلطة.. امرأة شقراء جميلة تتمتع بالحيوية، ولكنها ما كادت تستقبل الطبيبة حتى بادرتها بقولها: إنها لن تستطيع للأسف الحديث معها أكثر من نصف ساعة حول مشاكل زوجها النفسية، ثم أضافت أن دافيد المسكين ليس لديه سوى مشكلة واحدة ولكنها لا تستطيع له شيئاً.

وقاطعتها إيكر قائلة: إننى لا أوافقك فى الرأى.. إنك تستطيعين الكثير. ردت الزوجة بابتسامة باردة:

– اسمعى.. لا وقت للمزاح.. إن أمام زوجى بضعة أيام أو بضعة ساعات وأنا لا أستطيع شيئاً من أجله.

– فلتسمحى لى.. إنك مخطئة، فزوجك يشعر فى داخله بأنه خاسر ومحبط وأنك..

وهنا صاحت الزوجة:

– مُحبط؟ ماذا تريدين منى بالضبط؟.. إنه زوجى وأعرفه أكثر منك.. ماذا تقولين؟.. طبيبة نفسية وتنقدين الأشخاص الذين يواجهون الموت!..

حاولت إيكر أن تعترض قائلة عندما أقول محبط فإننى أعنى... ولكن الأخرى صاحت فى وجهها:

أبداً.. لم يكن محبطاً فى يوم من الأيام.. لقد كان زوجى طوال حياته مثالاً للشرف والنقاء.. إنه أشرف رجل قابلته فى حياتى.. لقد قضى عمره يفنى نفسه من أجل الكنيسة وكان يضحى بجميع أجازاته من أجل مساعدة الناس.. والآن تقولين لى إنه..

قاطعتها إيكر بحدة وهى تقول:

– كفى.. هل حدث أن قلت لزوجك هذا الكلام ولو مرة واحدة؟ ولم تستوعب الزوجة فى البداية وجهة نظر إيكر فأعادت عليها السؤال وحينئذ كان ردها:

– ولكنه يا مدام يعلم جيداً أن..

– بل اذهبى إليه بسرعة وأخبريه.. أنه بين الحياة والموت.. أتتركينه يرحل هكذا دون أن تقولى له شيئاً.. إنه ينتظر ويتألم.

فى الصباح التالى جاءت الزوجة إلى المستشفى.. كانت إيكر موجودة فقالت للمحتضر: «إن زوجتك تريد أن تقول لك شيئاً».

وتلعثمت المدرسة الماهرة وهى تقول: «لقد كنت أقول للدكتورة روس إنك.. إنك كنت دائما..» ولم تسعفها بلاغتها فى الحديث فانخرطت فى البكاء، وألقت بنفسها بين ذراعيه فآثرت إليزابيث أن تتركهما.

فى المساء ولأول مرة منذ أسابيع بدا الرجل هادئاً مسترخياً وكف عن الشكوى.. لقد بلغ المرحلة الخامسة. وفى الصباح التالى مات الرجل.

التقت إيكر فى ندواتها بالعديد من النماذج التى تمثل مراحل مختلفة من الاحتضار ولكن المرحلة الثالثة وهى المساومة تعد أكثر السيناريوهات طولاً.. «دكتور.. عدنى بأن أعيش حتى الكريسماس» أو «حتى يعود ابنى من السفر»..

إنها مساومة وهمية يطلب فيها المحتضرون من الشمس أن تتوقف عن دورانها ومن الزمن أن يوقف عجلته !

ذات يوم أكدت المريضة التى تحادثها إيكر من وراء الستار أنها تستطيع أن تصمد عاماً كاملاً حتى زواج ابنها! لم يكن الأمر مقنعاً بالنسبة لإليزابيث أو الأطباء.. فهى ترفض أى تكهن بلحظة انتهاء الأجل. إن الطب مهما تقدم لا يستطيع أبداً تحديد موعد الموت. ولا يجب أن يجنح بنا الأمل بعيداً.

فى المرحلة الثالثة نشهد تعايشاً غريباً بين الأمل فى الحياة والتيقن من الموت. فالمحتضرون يحتفظون فى هذه المرحلة بطاقة وحيوية ضخمة تساعدهم على المساومة، لقد أكدت المريضة رغم صحتها المتدهورة أنها ستعيش حتى تشهد زفاف ابنها، وكان رأى الجميع أنها لن تستطيع الصمود لفترة طويلة.. ولكن حدثت المفاجأة.. وجاء يوم الزفاف ورغم نحافتها الشديدة وحالة الاعياء التى تعانى منها وجدت لديها القوة لترتدى أبهى ملابسها وتتزين وتذهب لزفاف ابنها وهى فى أوج سعادتها.

وبعد أسبوع من عودتها للمستشفى اندفعت الأم داخل قاعة الندوة وقالت بحدة أمام الجميع: «دكتورة.. لدى ابن آخر وأريد أن أزوجه أيضاً».. ولكن هذه المرة لم تستطع الأم الصمود طويلاً رغم أنها لم تفقد الأمل والعزيمة حتى النهاية.

فى المرحلة الرابعة يطغى الإحساس **باليأس** والكآبة على المحتضر.. وتكون المشكلة فى أغلب الأحيان هى تشبث من حوله بالمرحلة الأولى (**مرحلة الرفض والاستكار**).. فهذا السلوك يمنع المحتضر أن يعبر بسلام المرحلة الرابعة، إنهم يحاولون بلا جدوى بعث الأمل داخله مع أن الأفضل له هو تقبُل مصيره المحتوم، والاستعداد لترك هذا العالم! إن العناد والتمسك بمحاولات العلاج غير المجدية، يُعد نوعاً من التعذيب فنحن بذلك نحرم المحتضر من

أن يتحرك ويتخطى مرحلة اليأس.. فيرفض فى معظم الأحيان رؤية أى شخص أو ربما يرتاح لشخص واحد فقط قد يكون قريباً أو صديقاً أو الممرضة.

إن الحديث النظرى عن مراحل الاقتراب من الموت ليس معناه أن هذه المراحل تظهر واضحة محددة المعالم فى الواقع.. فهى تتشابك وقد تتكرر إحداها مرتين أو ثلاثة، فهناك درجات من التردد والرفض فى مرحلة **الإنكار**، وتفاوت فى حدة **الغضب**، وتوسلات مختلفة أثناء **المساومة**، لكن التسلسل العام لهذه المراحل يظل ثابتاً وعندما لايوجد ما يعوق المرور بالمراحل الأربعة الأولى، فإن المحتضر ينفذ تلقائيا إلى المرحلة الخامسة.. وقد يستغرق الأمر عدة سنوات أو عدة ساعات حتى تأتى **المرحلة الخامسة** أو المحطة الأخيرة.

كان معظم الاطباء يرفضون أسلوب إيكر فى مواجهة المحتضر بحالته ويؤمنون بضرورة تركه.. يموت فى سلام، كانت لديهم نفس مخاوف البروفيسور رونالد سيجل من أن يفسح أسلوبها مجالاً لانتشار «**اللامعقول**» بصورة مخيفة فى العالم، ورغم اختلاف الآراء لم يستطع الأطباء معارضة إيكر بشدة لأنها تهدف إلى مساعدة الناس على المرور بكافة المراحل حتى المحطة الأخيرة من خلال رعاية طبية وإنسانية.. بعدما لاحظت أن المريض الجيد بالنسبة للمستشفى هو الذى يتماثل للشفاء وليس المحتضر الذى يواجه الموت.

ورغم سوء التفاهم المستمر بين إيكر وزملائها فإن ندوتها المتميزة كانت تجذب إليها الكثيرين.. فامتدت شهرتها إلى مراكز علاج السرطان ودور المسنين ومعاهد التمريض.

كان الجميع يتحدث عن امرأة غير تقليدية، طبيبة نفسية تناقش الموت مع المحتضرين وتؤكد أنه لا ينبغى حرمان أى شخص من مواجهة نهايته، فالمعاناة تجربة يمكن التخفيف من حدتها ولكن إنتظار الموت يمكن أن يصبح تدريباً نفسياً يحول المحتضرين إلى أساتذة فى فن الحياة.

خارج مستشفى بيلينجز كانت إليزابيث تتبع أسلوبها الخاص فى عدة منشآت أخرى منها كلية الدراسات الدينية (حيث أدخلت دورة دراسية عن الطب النفسى) ومعاهد المكفوفين، هناك اكتشفت أن فاقدى البصر يعيشون داخل مشاعرهم الخاصة أكثر من المبصرين.. حاول أن تجلس فى مكانك لمدة شهر أو حتى يوم واحد مغمض العينين وستعرف كيف يفكر المكفوفون

ذاعت شهرة إليزابيث فى المجتمع الأمريكى فى نهاية خريف ١٩٦٩ من خلال ثلاثة أحداث:

الأول هو كتابة إليزابيث لأولى مقالاتها فى المجلة الطبية التى تصدرها جامعة شيكاغو. وجاءت الفرصة الثانية عندما قرأ الناشر الأمريكى الشهير «ماكميلان» مقالها بالصدفة وطلب إليها أن تؤلف كتاباً.. وحاولت أن تعتذر لأن حياتها مشحونة ولا وقت لديها للتأليف.. فالمرضى بدءوا يطلبونها فى كل مكان وكانت تذهب إليهم كلما استطاعت لتتحدث معهم وتسرى عنهم، كانت تفعل هذا مجاناً، فلم تكن تتصور أن تقول لشخص ما مثلاً: «لقد ساعدت زوجتك على الموت فى سلام.. والحساب مائة دولار!». ولكن فى المقابل بدأت إليزابيث بعد ذلك تتقاضى أجراً عن الندوات التى تعقدها فطردتها الجامعة، وبدأ الناشر يلح عليها فوافقت على تأليف كتاب عنوانه «حول الموت والاحتضار» وفرغت منه خلال ثلاثة أشهر كانت خلالها تعمل فيه من منتصف الليل حتى الثالثة صباحاً.

وكانت إليزابيث على موعد مع الشهرة للمرة الثالثة عندما اهتمت مجلة «لايف» الأمريكية بالتعرف على أسلوبها الحديث فى التدريس فأرسلت فريقاً صحفيا لإقناعها بضرورة تعريف الناس بما يحدث وراء الستار فى ندواتها.. دعت إليزابيث صحفياً ومصوراً لحضور ندوتها الأولى لشهر نوفمبر.. كانت تستعد فى ذلك اليوم لمناقشة رجل عجوز يعيش منذ فترة طويلة فى حالة «سلام مع نفسه» أضافت إليه مزيداً من الحكمة، ولكن فجأة مات العجوز

ليلة إلقاء المحاضرة واحتارت إليزابيث ماذا تفعل.. ثلاثة أطباء بالمستشفى متعاطفين معها فساعدوها على تفقد مرضاهم سراً وأخيراً استقر الرأى على «إيفا».. فتاة سمراء جذابة فى الثانية والعشرين من عمرها مصابة بسرطان الدم، يا للمصادفة! إن حالة ايفا مشابهة تماماً لحالة ليندا التى قدمتها إيكر منذ خمس سنوات.

جاء مندوبا مجلة «لايف» ليشهدا الندوة وكان واضحاً أن إليزابيث تعرض نفسها للمخاطر، فخلال الحوار القصير الذى دار بينها وبين الفتاة قبل الندوة كانت فى منتهى الهدوء تتقبل مصيرها بشىء من الدعابة والسخرية، وأبدت سعادتها لنشر صورها فى مجلة «لايف».

ولكن أثناء الندوة، حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد رفضت الفتاة الحديث عن الموت وقالت: «تعالوا نتحدث عن الحياة، إننى أعتقد فى شفائى»، ثم بدأت تحكى أحلاماً مجنونة عن معجزات الشفاء.

إلى أى مرحلة تنتمى هذه الفتاة؟ الأولى أم الثالثة أم الخامسة؟.. إن ذلك لا يهم الآن. خلف الستار، تأثر الطلبة بشدة بكلام الفتاة وذرف الصحفى «لندن وينرايت» دموعاً ساخنة، بينما نجح المصور «ليونارد ماكومب» فى التقاط صور رائعة عبر الستار.

وظهر المقال فى مجلة لايف فى ٢١ نوفمبر ١٩٦٩ وبعدها أصبحت إليزابيث كوبلر-روس والفتاة إيفا من نجوم المجتمع الأمريكى.

ولكن رد الفعل لدى المسئولين فى مستشفى بيلنجز كان مختلفاً.. فقد استشاطوا غضباً وهدد قسم العلاقات العامة بالاستقالة الجماعية، لقد بذل العاملون فى هذا القسم جهداً مضنياً لإظهار المستشفى بصورة مشرقة تنم عن الصحة والعافية.. واليوم تجىء هذه المرأة الشيطانية لتحطم كل هذا الجهد وتجعل إحدى المحتضرات فى المستشفى سبب شهرته فى العالم كله والأدهى

أنها شابة صغيرة. «هل تتحول الدعاية للمستشفى إلى شعار يقول: هاتوا أطفالكم ليموتوا في مستشفى بيلنجزا!»

بعد هذه الضجة شدد الرؤساء أوامرهم للأطباء والممرضات والطلبة بضرورة الالتزام بتعليمات المستشفى وتم توزيع نشرة لمنع إليزابيث من التعامل مع معظم أقسام المستشفى.

فى ندوة الأسبوع التالى لم يحضر سوى عدد قليل من الطلبة جاءوا لوداع إيكر التى بدت مستاءة ومضطربة.. فقد حذروهم من حضور الندوة إذا أرادوا أن يحصلوا على درجات التخرج. واضطر الطلبة أن يرضخوا للأوامر.. فشهاداتهم ومستقبلهم واحترام رؤسائهم وقلة تجاربهم أصبحت جميعاً فى كفة واحدة أمام تعلقهم بالندوة.. فكيف لهم أن يتصرفوا ؟ إنهم معذورون ولا شك.

كانت تلك فكرة خبيثة لمحاربة إليزابيث روس، فبينما استمرت ندوتها بشكل رسمى فى البرنامج الدراسى لجامعة شيكاغو إلا أن جميع الطلبة قاطعوها وتهربوا من حضورها.

ومن ناحية أخرى، انهالت الخطابات على مجلة «لايف» بعد نشر مقال إليزابيث وإيفا.. خطابات من كل مكان ومن فئات مختلفة.. ممرضات وأطباء.. قساوسة ومرضى منهم عدد كبير تماثل للشفاء.. سيل من الخطابات، تحمل لإيكر آلاف الأسئلة التى أكدت لها صدق حدسها.

وبعد عدة أسابيع من التخبط والإحباط استعادت إيكر توازنها وعادت إلى ندواتها متنقلة بين العديد من المؤسسات بعد أن تركت الجامعة.

فى أول يناير ١٩٧٠ ماتت إيفا. وأحدث خبر وفاتها تحولاً كبيراً فى أعماق إليزابيث.. لقد شعرت بالنضوج ولم تعد تخشى رؤساءها وهى التى كانت حريصة دائماً على ألا تصدمهم، وتجاهلت فى سبيل ذلك الكثير من الشواهد الغريبة التى رأتها وسمعتها وأحست بها عند اختلاطها بالمحتضرين.. أشياء تافهة

وأخرى عظيمة لم تلتفت إليها لشدة حرصها، وربما لخوفها من المجهول أو قلة نضجها.

عندما يموت هؤلاء المحتضرون تختفى معهم الرؤى التى شاهدوها أو كما يقول القدماء «كلمة السر» التى تنتقل من جيل لآخر.. وتبقى فقط الطقوس الدينية المتبعة فى دفن الموتى.

وتؤكد إليزابيث أن المرحلة الخامسة لا تزال غير مفهومة رغم جمالها.. فهى تتدفق فى سلاسة مثل شلالات نياجرا.. وتحدث تغييراً فى معنى الحياة لدى من يمر بها، ولكن العلم يقف دائماً حائلاً أمام الظواهر الغريبة غير معترف بها حتى ينكشف غموضها، أما الدين فيلعب دوراً اجتماعيا ونفسياً فى تهدئة المحتضرين.. هكذا كانت إليزابيث تشعر عندما تقترب من أحدهم يصحبها أحد الاخصائيين النفسيين بالمستشفى ليحاولا معاً إخراج ما فى جعبة المريض.. كان الأخير يعتقد دائماً أن المرشد النفسى يحاول علاجه نفسياً، بينما جاءت إليزابيث لتلعب دور القس الذى يأخذ بيده إلى حافة بحيرة الموت.. كان الموقف مخيفاً يحتاج لجرأة وحنان امرأة مثلها.

عندما يبلغ المحتضر حافة الموت يذكر شواهد غريبة.. مثلما فعلت مدام شوارتز التى دعتها إليزابيث ذات مرة فى إحدى ندواتها، إنها سيدة فى الأربعين ينهش السرطان جسدها ببطء شديد، وقد دخلت المستشفى ثلاث عشرة مرة من قبل، وفى المرة الرابعة عشرة جاءت لتحكى قصتها من وراء الستار فى حضور خمسين طالباً.

إنها خادمة من ولاية إنديانا، يعانى زوجها من حالة انفصام فى الشخصية «شيزوفرينيا» حادة.. وعندما تنتابه النوبة يحاول دائماً قتل أصغر أطفالهم الأربعة (الوحيد الذى ما زال يعيش معهم فى المنزل)، وفى كل مرة تتدخل الأم قبل أن يقتل الأب طفله..

بعد دخولها المستشفى كاد القلق يمزقها ولم تعد تعرف للنوم طعماً.. ماذا يحدث لو انتابت الأب النوبة فى غيابها.. إن إحدى شيقيقاتها ترعى الطفل فى غيابها، ولكن صورة الأب وهو يذبح الطفل كانت تلازمها باستمرار.

وتعددت المرات التى احتجزت فيها المرأة فى المستشفى وخاصة فى شيكاغو حيث توجد وسائل أفضل لعلاج مرض السرطان، وذات يوم فى طريق عودتها إلى «إنديانا» شعرت بتوعك شديد لدرجة جعلتها تدخل أقرب مستشفى.. وهناك مرت بتجربة فريدة.

كانت قد تعبت من المقاومة والتمسك بالحياة والتفكير فى طفلها المهدد وفجأة انهارت مقاومتها وقررت أن تنسى كل شىء لترحل فى سلام.. عندئذ شعرت بصفاء وسكون يشملها، وفتحت عينيها لترى الممرضة تدخل حجرتها وتقيس لها النبض ثم تطلب فريق الإنعاش.

وتحكى مدام شوارز كيف مرت بهذه التجربة.. لقد شعرت بعد حالة الهدوء والاسترخاء التى شملتها بأن شيئا ما يجذبها إلى أعلى.. وجدت نفسها بعد قليل تسبح فى الهواء على مسافة من السرير وهى ترقب جسدها الشاحب الممتد تحتها، فانتابها شعور بالمرح وهى ترى نفسها قريبة جداً وبعيدة جداً فى آن واحد!

وسألتها إليزابيث إن كانت قد شعرت بالفعل أنها فى عداد الأموات.. وردت مدام شوارتز بالإيجاب، فقد كانت على ارتفاع ثلاثة أمتار، وفريق الإنعاش من حولها يقوم بحقنها ومحاولة إسعافها، وشاهدت جميع التفاصيل بدقة حتى لون عيون الأطباء.. بل إنها استطاعت قراءة أفكارهم، فإحدى الممرضات كانت تلندن فى سرها بقطعة موسيقية.

لأول مرة فى حياتها تشعر مدام شوارتز بمثل هذا التحسن، وقد حاولت أن تنقل إحساسها لفريق الإنعاش حتى يهدأ بالاً فاقتربت من بعضهم لتلمسهم، ولكنها اكتشفت أنها تراهم وهم لا يدركون وجودها.. فهى بالنسبة لهم

مجرد جثة هامدة يحاولون إنقاذها. وبعد عدة محاولات فضلت على حد تعبيرها «أن تفقد الوعي». فاستيقظت في سريرها وداخل جسدها بعد أن توقف قلبها ٤٥ دقيقة كاملة! وأيقن الجميع أنها ماتت خاصة وأن رسم المخ الكهربائي أكد أيضاً موتها من الناحية الطبية.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تستمع فيها إليزابيث لمثل هذه الرواية، وبعد أن عادت مدام شوارتز إلى غرفتها بدأت مناقشة حامية في الندوة.. احتج الطلبة مرددين: «من تلك المجنونة؟ ولماذا أتت بها إليزابيث؟.. ولماذا لم تتدخل لوقف هذيانها؟.. إن ما تقوله مجرد هلوسة وخيالات مريضة» وأصر الطلبة الذين أظهروا غضباً شديداً على أن تضع إليزابيث تفسيراً مقبولاً لما سمعوه، وتوقعوا أن توافق على رأيهم في أن الرواية لا تزيد عن مجرد هلوسة. قالت إليزابيث للطلبة: «إنني لا أستطيع تفسير هذه الظاهرة ولكن كيف تريدونني أن أمنع هذه المسكينة من إنهاء روايتها.. إن المنطق العلمي يجب ألا يتجاهل أي ظاهرة حتى لو كانت غير مفهومة».

وساد الهرج أنحاء القاعة، فقد وافق بعض الطلبة على رأي إليزابيث بينما اعترض البعض الآخر.. فقالت لهم: «إن الاستماع لهذه الرواية ليس معناه عدم نقدها، ولكن إذا افترضنا وجود شيء من الحقيقة فيها فإن هذا يعني أننا نستطيع أن نجد حالات مشابهة ومن ثم يمكن إخضاعها للدراسة والبحث..»

كان هناك شيء ما في قصة مدام شوارتز تفهمه إليزابيث ولكن الطلبة لم يستطيعوا إدراكه.. لقد رأيت ذلك واضحاً عندما شاهدت شرائط الفيديو الخاصة بها في بوسطن عام ١٩٨٤ ، والتي كانت تسجل فيها لقاءاتها مع المحتضرين.

هناك حالة لا أستطيع أبداً نسيانها.. كانت لامرأة مصابة بورم خبيث في الغدة الدرقية، جعل رقبتها منتفخة بصورة مؤلمة، وكانت إيكر تحادثها في حنان وهدوء بينما ترقد المريضة على السرير وإلى جانبها حفيدها الرضيع.

ورغم الاهتمام الهائل الذى تمنحه إليزابيث للمحتضرين فإنها تتصرف بسلبية متناهية إزاء الجثث.. لقد استمرت لساعات طويلة إلى جوار رجل يحتضر، ولكن ما إن توفى حتى ظهر حاجز بينها وبين الجثة.. لقد أصبحت الجثة مجرد كوم من اللحم!..

ذهبت الروح وبقى الجسد، إن الحياة تشدها أكثر إلى عالم المحتضرين لتصاحبهم فى محطتهم الأخيرة وهو عمل يبدو مخيفاً بالنسبة للمجتمع، ولكنه يمنح إليزابيث حيوية شديدة تنتقل بصورة غير مباشرة للمحتضر نفسه، فمساعدة المحتضرين تؤدى فى بعض الأحيان إلى حل مواقف نفسية معقدة تحيط بالعائلة كلها.. إن الأيام أو الساعات الأخيرة فى حياة الإنسان لو مرت فى سلام لكانت كفيلة بأن تغير حياة عائلة بأكملها.

التقت إليزابيث بعد ذلك خلال حياتها العملية بالعديد من النماذج المشابهة لمدام شوارتز، ولكنها لم تخبر أحداً.. كانت فقط تجمع المعلومات وتضع الاستنتاجات حول هذه الظاهرة مثلما فعلت من قبل عند لقائها بالمحتضرين الذين وصلوا إلى المرحلة الخامسة.

واكتشفت إيكر أن بعض المحتضرين يتمتعون بحاسة تناقل الخواطر التى يستشفون من خلالها ما يدور فى خلد الآخرين عن بُعد وبغير الوسائل الحسية المعروفة، فيستطيعون مثلاً تخمين ما تفكر فيه، ويذكرون أشخاصاً لا يعرفهم أحد سواك، ويصفون أماكن لم يزوروها من قبل.

وقد ضرب الأطفال الرقم القياسى فى هذه الظاهرة.. فقررت إليزابيث بعدها أن تكرس جهودها لرعاية الأطفال الذين يواجهون الموت وكذلك آباؤهم.. فأصبحت رعاية آباء الأطفال المحتضرين هى أهم أعمالها.

فى عام ١٩٧٠ وبعد نشر مقال «لايف» بدأت الجامعات والمدارس والمستشفيات تدعو إيكر لإلقاء محاضراتها، وحقق كتابها شهرة واسعة بسبب مقال «لايف» الذى ضاعف ردود الفعل تجاه الكتاب آلاف المرات.

كانوا يطلبونها فى كل مكان فتذهب أو تسافر إليه. وأخذتها الشهرة فأهملت طفليها ولم تعد تراهما بانتظام، واتسعت خلافاتها مع زوجها.. فباع المنزل فى شيكاغو ورحل مع الطفلين وتركها وحيدة.

وفكرت إليزابيث ماذا تفعل؟ هل تستمر فى دراستها «لظاهرة شوارتز...»؟.. لا.. إنها ستترك هذا المجال لغيرها من العلماء ممن هم أصغر سناً، وذات يوم جاءتها بروفات كتاب لناشر من أطلنطا يحيِّى فيه جهودها فى مجال علم النفس، ويرجوها أن تكتب مقدمة لكتابه فوافقت.

كان الطريق أمام إيكر ممتدا.. خاضت خلاله تجارب عديدة وتألقت فى مجالها، فلتتركها الآن تستكمل اكتشافها للمجهول الذى كانت تحلم بسبر أغواره ودروبه منذ وقت طويل.

لقد فتحت هذه المرأة المجال أمام الكثيرين من علماء النفس.. فلتسمح لى عزيزى القارئ بإلقاء نظرة على جهود الرجال فى هذا المجال ثم نعود مرة أخرى إلى إيكر.